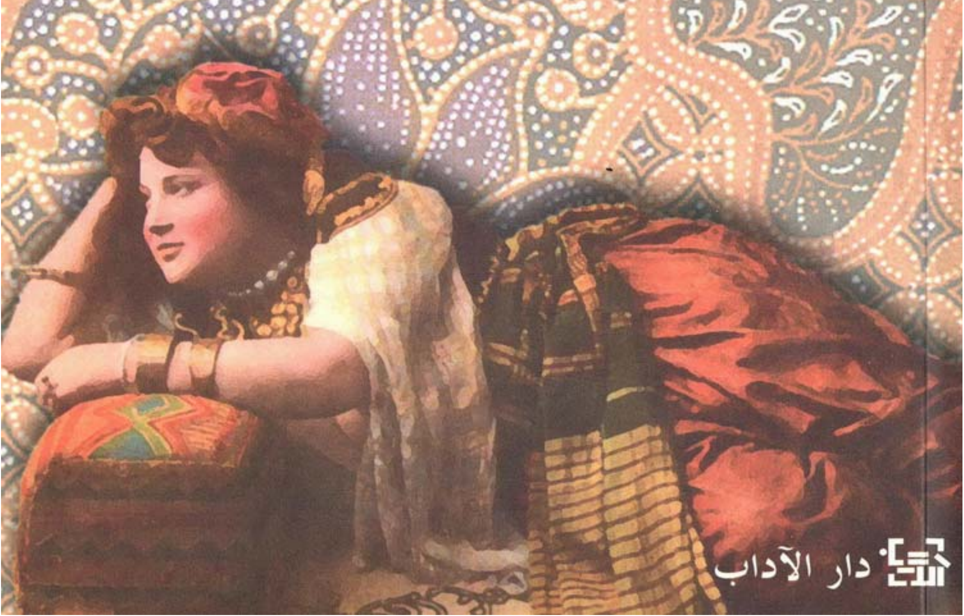
رواية

البشير الدامون

سرير الأسرار



دار الآداب

البشير الدامون

سرير الأسرار

رواية

دار الآداب - بيروت

سرير الأسرار

البشير الدامون/روائي مغربي

الطبعة الأولى عام 2008
ISBN 978-9953-89-018-0

دار الآداب للنشر والتوزيع
ساقية الجنزير ـ بناية بيهم
ص.ب. 11-4123
بيروت ـ لبنان
هاتف: 861633 (01) - 861632(03)
فاكس: 009611861633
e-mail: d_aladab@cyberia.net.lb
Website: www.adabmag.com

أن تنسى، مهمّة صعبة الإتقان.

صور ضبابيّة تنتشر مشتّتة في ذاكرتي. يقترب منّي ذاك الشتات بحدّة يلفّني.

يتوقّف خفقان ذهني ليعلن عن تشبّثه بشيء يشدّه إليه عنوة وبحدّة، رغم كل محاولات الهروب والابتعاد.

هذا ما أحسّه الآن.

نار تشتعل وتستعرّ، أودّ لو أنزع هذا الطرف المضني من عقلي، وألوّح به بعيدًا علّني أنسى.

كل شيء يتراءى لي خيوطًا تتماسك، صورًا تنزل إلى قلبي نافذة بحدّة، تجعلني أفزع منها، ومن نزيفها الجارف في دواخلي.

لِمَ يا ربي لم تسعفني بذاكرة منخورة؟ بذاكرة غربال تسقط ما تشاء وتبقي على ما هو بي ألطف؟

خيانة كبرى أن تعاندك ذاكرتك، تتوسّل إليها أن تريحك، أن ترحمك، أن تدع النسيان يدثّرك، فترفض متعنّتة في كبرياء.

أأنا أعود إلى ذاكرتي، أم ذاكرتي تعود إلي؟

هي الآن تشدّني إلى طفولتي. صور تتراقص أمام عيني، متماوجة بألوان صارخة تنبعث وتنطفئ في مخيّلتي لتجعلني أحدّق فيها وأتأمّلها بوضوح.

وخز إبريٌّ ينداح في قلبي... انجراف إلى ماضي طفولة سعيدة ممزوجة بالألم، مشوبة بحزن ثاقب، تنطلق من ساحة السوق السفلي.

محمولة بين يدي أمّ طويلة القامة عريضة الكتفين، تمدّ يدها لتشتري لي علبة بسكويت مغلّفة بورق ذهبي، وأنا أبكي من وجع ألم برأسي، وأمّي تنهر أطفالاً يمدّون أعينهم بنهم إلى علبتي.

من هذه الساحة، حيث اصطفّت عشرات الدكاكين يمنة ويسرة تبدأ الدرج المؤدِّية إلى منزلنا صاعدة، وقد رُصّت في انتظام بديع بحجارة ملساء يهبها انهمارُ المطر اللمعانَ.

بدكاكين الساحة المتماثلة الحجم تعرض سلع مختلفة، مواد غذائيّة وتوابل وألبسة تقليديّة وجلود وأواني فخّار. حوانيت من نوع سلعها وسحنات أصحابها تجعلك تحسّ وكأنّها تسافر بك لتحيلك على فضاء موغل في القدم، لا يخترقه الزمن.

ساحة خطّط لها أن تكون مركزًا لوسط المدينة حين تمّ تأسيسها، ولتصبح قلبها التجاري النابض. من هذه الساحة يتفرّع حيّنا، كما تتفرّع عدّة أحياء أخرى: باب العقلة باب الصعيدة باب الرواح باب الرموز باب التوت باب النوادر باب المقابر باب الجياف.

أمام باب منزلنا، وعند مدخل الدرب الطويل، أتجمّع مع الأطفال أو أتفرّج عليهم بفضول. شعري الأسود الفاحم الذي ينسدل على جبهتي وأذني لينحصر فوق عنقي، ينساب على عيني برفق حين أركض، فيوحي لبعض المارّة بأن يمدّ يده ليمسّده. أو أن تقبّلني امرأة واصفة إيّاي بالجميلة.

كل هذا، واهتمام الأطفال بي يجعلني أعيش تلك المرحلة من الطفولة عرسًا من الفرح.

لكنّه صعب أن يغتال فيك الفرح وأنت طفلة.

تنغيص سعادتي تلك بدأ يوم نهر ابن جيراننا يوسف أخته سعيدة مانعًا عنها اللعب معي.

لا تلعبي معها، إنّها بنت عاهرة.

نترت الطفلة يدها منّي، هرول كل الأطفال من أمامي وبقيت أنظر بحسرة فاقد شيء لا يعرف لِمَ فقده؟

توجّهت إلى أمّي مسرعة باكية، تسبقني دموعي قبل أن أحكي ما نعتني به ذاك الطفل.

بعيون كوتها النار توجّهت أمّي، وأنا أتبعها، إلى باب منزل الصبي، نادت على أمّه. وما أن فتحت الباب حتى ارتمت أمّي إلى الداخل، فسمعت بالدرب صيحات استغاثة الطفل واستعطاف أمّه وصوت حطام الأواني.

خرجت أمي تدعك يدها، وهي تأمرني بأن لا أعود إلى اللعب مع أولاد العاهرات!

اللّيل يخفي أشجار الحديقة. قدّمت لي جارتنا ماما رحمة تينة تناولتها بامتنان. تمرّ ساعات وأنا قابعة معها تحت شجرة التّين. هي تنقّي القمح من الحصى وأنا أساعدها. أجد ارتياحًا في دارها، امرأة صبوحة الوجه رقيقة الكلام.

كثيرًا ما أتوجّه إلى منزلها المقابل لدارنا. في البداية كانت أمّي مما زاهية تمنعني زاجرة، بعدها بدأت تضربني. لكنَّها أمام إصراري وتدخّل سي الأمين صاحب البيت، تركتني أدخل بيتها متى أشاء، وطلبت منّي أن أناديها مما رحمة.

سمعنا صرير باب الدار، دخل السي الأمين يسند عكّازًا. رجل طويل القامة نحيفها ذو لحية شذّبت بعناية. يلتفع جلباب صوف وتلفّ رأسه عمامة بيضاء. مرّ بفناء الدار ومنه دلف إلى الحديقة. قبّلت مما رحمة يده، فعلت مثلها، ليّن شعري بيده في لطف:

ـ أيّتها العروس الجميلة.

إطراؤه هذا يسعدني كثيرًا. سأل مما رحمة إن كان الضيوف حضروا. أجابته بالنفي.

باندفاع سألتها:

ـ مما رحمة، لماذا يزور الضيوف منزلنا كل يوم؟

دارنا الدار الكبيرة، على عكس دار سي الأمين، لم تكن تخلو من الضيوف. رجال ونساء مترافقون أو فرادى يلجون الدار. يدخل رجل وامرأة غرفة ثم يغلقان الباب خلفهما، حركة وضوضاء لم تكن تنتهي إلاّ مع حلول الظلام.

حدّقت مما رحمة بنظرة طويلة، وحدجني سي الأمين مقتلعًا زفرة من داخله:

ـ اللَّهُمَّ باعد بينها وبين تلك الدار.

داركم دار بغايا، هذا ما قالته لي سعيدة ونحن متوجّهتان إلى المدرسة. بدهشة نظرت إليها، لم أدرك معنى كلامها. ذكرت أنّ أمّها حدّثتها عن أشياء قبيحة تجري في دارنا، وأنّ أمّي مما زاهية ليست بأمّي، وهي امرأة غير شريفة. قبل أن تخبرني أنّ أمّها منعتها من اللعب معي.

بكيت كثيرًا. هل لأنّني لن ألعب معها بعد اليوم؟ أم بسبب ما سمعته عن أمّي وعن دارنا. لم تتوقّف دموعي. في المدرسة نهرتني المعلّمة، ازددت بكاء، قرّبتني إليها واحتضنتني. وددت لو أردّد عليها ما حكته سعيدة وأن تبقيني قريبة منها.

وعند اقتراب المساء عدت إلى المنزل وحسرة تضطرم في نفسي.

منزلنا دار كبيرة، بفناء واسع مزلج بالمزهري، معرّى السقف، تتوسّطه نافورة ماء صغيرة، زيّنت بفسيفساء أزرق وأصفر. الطابق الأرضي من خمس غرف كبيرة، أبوابها الخضراء مرتفعة، ثبّتت كل واحدة تحت قوس كبير. وللطابق العلوي التصميم نفسه، ويتوسّطه درابزن يطلّ على السفلي. بالجانب الأيمن من السفلي نصعد سلاليم بُنِّيَّة ضيّقة تؤدّي إلى دويريّة خضّبت حواشيها بالنيلة، حيث أقيم مع مما الزاهية. منزل صغير تطلّ شبابيكه على فناء الدار الكبيرة، له مدخل آخر من درب خلف الدار.

كانت مما زاهية تمنع عليّ ولوج الدار الكبيرة، مثلما تزجرني بشدّة إن هي باغتتني أطلّ من شبابيك الدويريّة على باحتها.

الليل حداد يمدّ ظلمته على الدنيا، صار سقفًا للفناء المعرّى. خمد الصخب من حولي.

أصبحت الدار الكبيرة خالية. لم تكن أمّي موجودة. ودون أن أولع النور، مكتفية بأشعّة القمر المتسرّبة من القبّة العارية لسقف المنزل، تسلّلت من غرفتي ونزلت إلى باحة الدار الكبيرة عازمة على أن أتلصّص بدافع غريب على بيوتها.

فتحت باب غرفة، خفقان قلبي الشديد يكاد يرجعني إلى الوراء، وأصوات نابعة من أعماقي تصدّني. أشباح تختلقها مخيّلتي. أنزعج منها. خفت، لم أستطع الدخول. عدت مسرعة إلى الباب المفضي إلى الشارع، ومنه هرعت إلى منزل سعيدة. ناديتها، جررتها من يدها دون كلام في اتجاه المنزل. فتحنا كل الأبواب. داخل كل غرفة يقبع سرير من هيكل معدنيّ يعلوه الصدأ والاهتراء. أسرّة ملفوفة في أغطية رثّة عليها بقع. لم أفهم لماذا تحتوي هذه الغرف على أسرّة دون باقي الأفرشة.

فجأة دخل من كنت أناديه أبي. رجل أشقر مربوع القد، ذو عينين خضراوين، نادرًا ما كان يحضر إلى بيتنا. ومرارًا ترتفع أصوات شجار بينه وبين مما زاهية حين يزورنا، تندفع على إثرها

أمّي، رغم صلابتها، في بكاء غزير. لم يكن يعيرني اهتمامًا، ويكتفي حين حضوره بتمرير يده فوق رأسي، وبنظرة عابرة. أمرتني أمّي بأن أناديه أبي.

لم يأبه بنا حين باغتنا نتلصّص على البيوت. سلّم لي علبة شكولاتة، أخذتها منه خائفة متردّدة. اقتسمتها مع سعيدة. هممت بمصاحبتها. رفضت موضحة لي أنّ أمّها تمنع عليها مرافقتي.

في يوم أحد كانت أمّي مسافرة. والرجل الذي أناديه أبي لم يكن. وقفت خلف الشبّاك طوال اليوم، حيث أتيحت لي أوّل مرّة فرصة التطلّع بتمعّن إلى ما يجري في الدار. كان المنزل يعجّ بالضيوف والمضيفات. دخول وخروج ودخول متواصل وضوضاء وجلبة تعمّ المكان.

تدخل امرأة، وبعد حين وجيز يلحق بها رجل، تقدّم مبلغًا ماليًّا إلى الشاطا، المرأة البدينة الجالسة في مدخل المنزل، ثم يتوجّهان إلى الغرفة ذات الباب المفتوح. يغلق الباب، وبعد لحظات تخرج المرأة، يتبعها الرجل، تغادر المنزل، لتعود بعدها برجل آخر.

مكثت اليوم كلّه أحملق في الوافدين والوافدات وفي أبواب البيوت التي تحتاج إلى بذل جهد من أجل فتحها أو سدّها.

الأصوات المحدثة من وقع دفعها من الداخل تزيد من انجذابي نحو معرفة ما يحدث، وتغرقني في بحر لذّة ورغبة اكتشاف ما يجري داخلها.

مع حلول الظلام، وبعدما خفتت الضوضاء وحركة الزوّار، دخلت يطو العرجاء مصحوبة برجل.

تذكّرت يوم كانت تقبّل رأس الشاطا البدينة، وتتوسّل إليها أن تغفر لها.

ـ دعيني أدخل رجلاً معي إلى البيت. (الله يرحم يماك).

خرجت مما الزاهية، جذبتها من جلبابها وأشبعتها ضربًا، والعرجاء تطلب أن تسامحها.

فتحت العرجاء باب الغرفة، تبعها رجل أتذكّر ملامحه الآن، كثيرًا ما يغزوني طيفه في الحلم أو اليقظة. كان فارع الطول، قامته توازي ارتفاع الباب الكبير للبيت، وجهه يحمل غضونًا جافّة، يتوسّطه شارب غليظ أسود.

شجاعة غمرتني رغم خوفي الفظيع. نزلت بخفّة جهة الباب، وبجهد جذبت ضلفة الباب، شدّني صوت احتكاك الأخشاب مع بعضها إلى مكاني بقوّة واعتراني الشده ممّا شاهدت رغم الضوء الخافت.

كانت العرجاء نصف عارية، ورجلها اليمنى ضامرة مقارنة بالأخرى، والرجل الطويل يتهيّأ كي يتعرّى.

كاد صوتي ينفلت منّي. هممت أن أطلق صيحة مدوّية ولكنّني لم أستطع إخراجها، أحسست بها تنزل في اتجاه معكوس من حنجرتي لتزلزل أحشائي ولتنفجر في دواخلي.

مرّت ثوان وأنا أحدّق في اندهاش، قبل أن تقفز المرأة وهي تحاول تغطية ما تعرّى من جسدها، لتجرّني وهي تضغط على يدي بلطف:

ـ اصعدي إيّاك أن تراك الزاهية أو الشاطا.

كانت العرجاء خائفة.

الدرجات المؤدّية إلى الطابق العلوي تنزلق تحت قدمي، وروحي تنزلق ببطء منّي، خطو بطيء أوصلني إلى غرفتي لكي أرتمي على سريري وأتمدّد في وهن واستسلام. لا أدري لم أرعبني هذا الذي رأيت.

كثيرًا ما ترغمني هذه الذكرى على أن أنتشلها ممّا تبقّى من صور طفولتي. ترغمني أن أستعيدها، فتتربّع على عرش ما استرجعته مخيّلتي من ذكريات المرحلة. ورغم محاولتي محو آثارها، دفنها وموارتها ترابًا إسمنتيًّا صلبًا أجرفه من نسياني، سرعان ما تعود وتنقضّ غارزة مخياطًا حادًّا في مسامي، نافخة رحيق ألم سامّ يشيع ببطء في أعماقي.

حاولت أن أخلد للنوم.. أسيح في صمت تتخلّله انفجارات مبهمة قويّة تنتشر ذبذباتها حول رأسي فأنغمس في دوائر سوداء تتماوج بي إلى ما لا نهاية.

استرجعت ما كنت أسمعه من لمز الأطفال وكلامهم الشامت. أسئلة منهمرة لم أكن أجد كيف أتّقي وقعها، وإحساس بالتشتّت والحزن بدأ يغزوني.

مطر، والبرد شديد، السماء مكفهرّة، والماء ينساب خيوطًا. درج الزقاق أصبحت نهرًا هادرًا يمنع المسير. البرد أشدّ على أجسامنا نحن الصغار.

كنت مرتدية معطفًا صوفيًّا مستوردًا، رجلاي ترفلان في جوارب دافئة مزركشة داخل حذاء جلديّ سميك يغطّي إلى ما تحت ركبتي، وأنا متوجّهة إلى المدرسة. التقيت سعيدة تحتمي من شدّة وقع المطر تحت سقيفة خشبيّة واقية لباب دكّان. دعوتها إلى مشاركتي مظلّتي. كانت شاحبة. جسد نحيل يرتعد، وأصابع مصفرّة تحمل محفظة كتب شبه ممزّقة. وهي تنتعل حذاء خفيفًا من المطّاط.

تبكي في غمغمة خافتة حين قالت لي إنّ أصابع رجليها تؤلمها من شدّة البرد. لا أدري إن كانت الرغبة في أن أتقرّب منها أكثر أم عطفي عليها، ما دفعني لكي أتبادل معها الحذاء.

كان ذلك قاسيًا، ارتعشت أصابع رجلي من البرد، بعدها ارتعدت كل أطرافي. ذقت ما كانت تشتكي منه.

عدت إلى الدار على تلك الحال، هرولت أمّي مما الزاهية إلى منزل سعيدة، بعدما علمت بما قمت به، وخرجت حاملة بيدها الحذاء وهي تزمجر وتسبّ، يتبعها أب سعيدة هلعًا مستسمحًا.

تمضي الأيّام وأنا أعزّ سعيدة، أقتسم معها ما أشتريه من حلوى. نتشارك طريق المدرسة ونفترق عند اقترابنا من المنزل.

من أنا؟ من تكون مما الزاهية؟ من هو أبي؟ ماذا يجري في الدار الكبيرة؟

ولماذا يقبل سكّان حيّنا مهلّلين لمما الزاهية في حضورها ويطعنونها بأقذع الشتائم في غيبتها؟

لم هذه القطيعة بينها وبين مما رحمة، رغم أنّني أعيش بين منزليهما.

كأنّ تنويمًا يدفعني لكي أوقف هذه الأسئلة الحارقة، ثم أواصل أيّامي في رتابة وهدوء.

بدأت أكثر من اللعب مع أطفال الحيّ، كل الأطفال اعتادوا عليّ، لم أعد أسمع كلمات جارحة، أو لم تعد تهمّني غمزات ولمزات بعضهم، وإن كانت تراكم داخلي شحنات من الألم.

* * *

اعتدت الحياة بالدار الكبيرة، وتعوّدت على الضيفات والضيوف إلى أن تكسّرت تلك الرتابة ذات غروب.

صياح الشاطة يتصاعد في فناء الدار، منبّهًا مما الزاهية. أربعة من رجال الأمن اقتحموا المنزل. كلمات نابية وسباب، قبل أن يركل أحدهم الشاطة حين حاولت منعه من فتح باب إحدى الغرف.

فزع الضيوف، وهم يحاولون ستر ما انفضح من أجسادهم، والمضيفات مولولات يلتقطن ما هو قريب منهنّ من لباس.

تسلّلت مما الزاهية وقفزت في اتجاه سطح المنزل موجّهة أمرها لي:

ـ لا تخافي.

وهي تهمّ بفتح الباب، باغتها رجل كان متواريًا خلفها، دفعها دفعة قويّة حتى كادت تتدحرج على السلاليم لولا أنّ الحائط تلقّف جسدها. ارتمى الرجل عليها لطمها، وبخفّة وضع قيدًا في معصميها. بكيت وصحت بأعلى ما تمكّنني حنجرتي.

صاحت أمّي:

ـ كفّي عن البكاء.

لعنت الرجل بنعت سافل. انقضّ عليها بخشونة. صوت قويّ انبعث من شابّ بين الرجال من الطابق السفلي يأمره بالتوقّف. أسكتني فزعي.

تمّ تكبيل أيادي الرجال، اقتيدوا خلف النسوة، رمتني أمّي بنظرة قويّة عند خروجها، وقد لعلع صوتها:

ـ لا تخافي، سأعود قريبًا.

انهار صبري وانطلق عويلي على عواهنه دون توقّف، وأنا مبحلقة في وجوه من أخذوا أمّي. جريت خلفهم، حاولت الإمساك بيدها، نحّاني أحدهم بخشونة.

خارج المنزل حشد من الناس. نسوة يطلقن كلمات تشفّ. سعيدة تطلّ من كوّة فوق باب منزلها هي وأمّها، تلاقت أعيننا، تطلّعت نحوهما أستغيث، لو يهباني ملاذًا ممّا لا أفهمه.

انطلقت الجموع وراء المقبوض عليهم، وقفت مما الزاهية، تنهر وتسبّ، ولم يتفرّق الجمع. تبعت الحشد مع الأطفال. كنت أعدو حافية واجمة وملوحة الدمع تتسلّل إلى فمي.

وصلنا ساحة السوق السفلي، انعرجنا في اتجاه باب العقلة. الضيوف والمضيفات يحاولون إخفاء وجوههم. بعض النسوة تنوح والأخريات صامتات كأنّهنّ يرتلن أدعية في جنازة صامتة.

مع اقترابهم من زاوية الحيّ كان عدد المتفرّجين قد تكاثر، ممّا اضطر أحد رجال الأمن إلى التدخّل بخشونة لإخلاء الطريق.

تحت القوس الكبير لباب المدينة، كان ضوء أحمر مهيب ينطلق من شاحنة الشرطة، تمّ حشو المعتقلين بداخلها. تسمّرت قرب باب الزاوية ونوبة البكاء تعاودني من جديد. لمحتني مما زاهية، فصاحت عليّ أن أصعد حالاً إلى منزل مما رحمة.

عدت أدراجي. كان باب الدار مفتوحًا وجمع من الجيران محتشد أمامه، وجدت أمّ سعيدة تسأل إحدى الجارات عن تلك الطفلة المسكينة التي كنتها. حين رمقتني، حدجتني بنظرة حنان خلتها مفتعلة، ثم دعتني إلى منزلها. جلست قرب سعيدة، وبعد أن جفّ حلقي من البكاء تمدّدت.

مع الصباح حضر الرجل الذي أناديه أبي، وسلّمني لمما رحمة.

في ركن غرفة من غرف المنزل، انزويت مع ملابسي ولوازمي المدرسيّة. أعدّت لي مما رحمة مطرحًا مريحًا على الأرض، أستعمله نهارًا للجلوس، وسريرًا في الليل. منزل من ثلاث غرف وفناء دون سقف مليء بأصص من الحبق، يتوسّطه باب يؤدّي إلى حديقة غطّت شجرة تين جانبًا كبيرًا منها، بينما تتدلّى فروع أشجار الليمون على السور الخارجي.

لم تكن المرأة تتكلّم كثيرًا. حين يعود زوجها أرتمي على يده وألثمها بحنان ممرّغة شفتاي فوق عروقها الناتئة.

سي الأمين كثيرًا ما كان يراجع معي دروسي، ثم يأمرني بأن أسرد عليه ما حفظت منها. كنت أسعد بذلك، وإن كان يغيظني أن أجده مرارًا يقاوم النوم، بينما أستظهر عليه بزهو ما حفظته. أمله هو أن يلقّنني طريقة حفظ القرآن وأن يعلّمني كيف أصلّي.

في ليلة ممطرة أحضر معه طائر حجل مذبوح، تهيّأت زوجته لطهيه عشاء لنا، وضعته فوق مجمر مملوء بالفحم.

نادى عليّ سي الأمين، ثم ناولني مصحفًا. شرعت أردّد معه

السور القرآنيّة التي يحفظها عن ظهر قلب. طال انتظاري، فكرّرت له أنّني جائعة. بلطف كان يشير عليّ بالصبر. هدّني الجوع، ما أكلته ذاك اليوم من ألذّ ما أكون تذوّقته.

بين الحين والآخر يزورنا علي، أخ صغير غير شقيق لمما رحمة، يقطن بضواحي مدينة الرنكون حيث يمتهن الفلاحة. وهو لا يكبرني إلاّ بسنوات، لكن جسمه المفتول العضلات وقامته الفارعة وشعره المقصوص يوحي للناظرين إليه بأنّه رجل بنضارة الشباب. رغم يفاعته كان يملك نخوة وحزم الرجال.

كثيرًا ما يحضر إلى منزل أخته محمّلاً بمنتجات أرضه من خضر وفواكه.

والعادة أن يضايق أطفال وصبيان حيّنا كل طفل بدوي يزور الحيّ. إلاّ أنّ عليًا لم يدع الفرصة لأحد من أولئك، بأن يتجرّأ عليه. شجاعته وضربات رأسه القويّة جعلتهم يهابونه.

يعاملني علي كأخت صغيرة له. صرت أسعد كثيرًا حين يرافقني ويشاركني اللعب مع الأطفال. مرافقته كانت تجعلني أحسّ بأمان.

أصبحت أحيا حياة جديدة، بين مساعدة مما رحمة في الأعمال المنزليّة ومتابعة دراستي. ابتعدت مؤقّتًا عن حلقات الأطفال في دربنا. حين أعود من المدرسة أتوجّه إلى الحديقة، أجمع أخشابًا وأعشابًا، وأنسج نموذجًا لعشّ طير، وأظلّ أرقبه من بعيد علّ طائرًا يلجأ إليه.

عند اقتراب الغروب أصعد إلى سطح المنزل وأتمدّد على ظهري لكي أحلّق وأطير بذهني وبصري مع الخطاطيف في السماء. رقصات طيرانها وجمال تحليقها في تموّجات والتواءات فاتنة تجعلني مغمورة بالحبور.

خلال العطلة المدرسيّة زارتنا يطو العرجاء، طلبت منّي أن أتهيّأ لزيارة مما الزاهية. توجّهنا إلى السجن، دخلنا سراديب فصلت بشبابيك، وقفنا أمام أحدها. ظهرت مما الزاهية يبعدنا عنها ممرّ فاصل. صياح السجينات وزوارهنّ يصمّ أذني، شرعت في نواح طويل.

طالت غيبة أمّي. لم أحنّ إليها كثيرًا، صرت أضع رأسي جانب مما رحمة، أحتضن صمتها الجميل وأرحل في سبات عميق.

لكن حيّنا الذي تعوّد الصخب والفوضى لم يدع هذا الصمت الهادئ يطول.

كنّا أنا ومما رحمة في زيارة لإحدى قريباتها. عند عودتنا مع ظلمة الليل، ولدى اقترابنا من المنزل، داهمتنا مجموعة أشخاص تجري في هلع، كادت أقدام الهاربين تدوسنا. رجل مسنّ مدمى الوجه يحاول الجري ما أسعفته قوّته، محاولاً اللحاق بالفارّين. امرأة تستغيث. شاب ينهمر دم قان من عنقه ووجهه. أحذية ملقاة

على الأرض. الكل أمامنا يهرول في جزع كبير. والخوف يقتلنا، وقفنا أمام باب منزل. مما رحمة لا تستطيع الجري... ترتعد وتتمتم بأدعية. وقفت قربها مفزوعة ممّا أرى.

وصل المهاجمون، أشخاص يحملون سيوفًا وسكاكين طويلة تقطر من بعضها الدماء، علامات السكر بادية عليهم. رفع أقصرهم قامة وأنحفهم سيفه في وجه مما رحمة، وهو ينعتها بأفظع الألقاب. أراد أن ينزع لثامها عن وجهها، رجته بتوسّل أن يدعنا. تقدّم أحدهم نحونا، وندبة تقسم خدّه الأيمن طولاً إلى قسمين، نبّه من معه إلى أنّني بنت مما الزاهية. أكّدت مما رحمة ذلك بقسم، فأخلوا سبيلنا.

وصلنا في حالة رهيبة من الذعر. كل الجيران أغلقوا أبوابهم من الخوف، وطفقوا يتبادلون الهمسات والإشارات خلف النوافذ بعدما أطفؤوا عليها الأنوار. كادت أنفاسنا تتوقّف.

بعد قرع قوي فتح لنا سي الأمين، وهو يستفسر عن حالنا ويلعن أولئك الأنذال وانعدام الأمن في حيّنا. محياه بدا مصفرًّا ممتقعًا.

بعد آذان صلاة العشاء، عاد الصعاليك المعربدين بجلبتهم قبالة منزلنا. أصوات موسيقى صاخبة وصراخ وشتم. أسرعت مما رحمة وعمدت الباب بركيزة من الخشب حتى تمنع فتحه بالقوّة.

يراكم اللّيل ظلمته، وتزداد عربدة السكارى. لا يجرؤ أحد من

سكّان الزقاق على الصعود أو النزول. من لحظة إلى أخرى يزمجر صوت أحدهم مهدّدًا، لاعنًا سكّان الحي والدنيا. يهتزّ الباب الصغير لمنزلنا جرّاء ترنّح أحدهم، أو حينما يتدافعون، فيرتجف قلبي من الهلع وينتفض جسمي الصغير، تهزّه قشعريرة. كنت أخاف إذا ما اقتحموا علينا المنزل. شدّني الحنين إلى شجاعة مما زاهية.

لم يغمض لي جفن طوال الليل أجاهد للاستسلام لغفوة خفيفة فيوقظني الصراخ نتيجة صيحة استغاثة، أو على دوي سبّ وقذف.

شرعت تباشير الفجر تلوح، أطلقتها تهاليل صوت رخيم يناجي ربّه في صومعة المسجد. تبعها آذان صلاة الفجر وتهيؤ سي الأمين للوضوء. طمأنينة عارمة تجتاحني، سلبت منّي كل جزعي، وأدخلتني في لحظات ارتياح أسلمتني لنوم عميق.

في الصباح كانت الدماء تلطّخ الحيطان والأبواب، والجيران يتحدّثون عن عدد الجرحى وعن غياب رجال الأمن.

* * *

عادت يطو لتأخذني معها إلى زيارة السجن. كان الزحام شديدًا، والصباح على أشدّه. ألفيت مما الزاهية شاحبة ومقطّبة. هنّأتني على تفوّقي في الدراسة. علا الضجيج أكثر، أحسست بالعرق يسري في جسدي، ثم برغبة ملحّة في أن أغادر. تمنّيت أن أولي عن هذا المكان المقرف. شعرت بعدها أنّني أتخبّط في

دوّامة تختلط عليّ فيها الأصوات وتتشابك الرؤى، وأنّني أسقط أرضًا.

بعد قليل، أفقت من غيبوبتي على رائحة قويّة لحبّة بصل أدمعت عيني، وإحدى حارسات السجن تبلّل وجهي بالماء، وعلى صوت أمّي وهي تأمرني أن أقطع عنها الزيارة.

انتهى الموسم الدراسي، سُرَّ سي الأمين ومما رحمة بنجاحي. أصبحت أرافقها حين تتوجّه إلى السوق للتبضّع. وأحيانًا أتوجّه وحدي لشراء بعض ما يخصّ المنزل. عندما يحين موعد الغداء أحمل ما سيتناوله سي الأمين، وأتوجّه إليه في دكّانه بزنقة الطرافين التي لا تبعد كثيرًا عن حيّنا.

زيارتي له كثيرًا ما تروقني. أراقب الباعة والزبناء، وأطيل النظر في السائحين والسائحات العابرين الزقاق. أنظر إلى ما حولي بلهفة المكتشف للجديد.

في إحدى الزيارات، وأنا أتطلّع إلى وجوه المارّة، مرّ رجل يحمل قفصًا، القفص يحمل عصفورًا جميلاً ملوّنًا، جذبتني الألوان الزاهية للطائر، أصواته الزاهية أيضًا، اقتربت من القفص، ناديت العصفور:

- شِو شو شو.

تملّكني فرح من مجرّد حلم امتلاكه. مرّرت أصابعي بين أسلاك القفص أداعبه. بكلمات لطيفة من فمه الأدرد سألني صاحبه إن كنت أرغب في أن يهديني الطائر. أكدت بلهفة محمومة:

ـ آه، نعم.

جذب الرجل القفص إلى صدره، وقال لي:

ـ اتبعيني، عندي عصفورة أفرخت ثلاثة فراخ. وسأهديك أحدها، هيي معي.

سرت وراءه، تسبقني قدماي من شدّة الفرح. مشينا مسافة وأنا أتبعه. من حين إلى آخر يلتفت ليتأكّد أنّني لازلت خلفه. توارى زقاق إثر زقاق، وتوالت دروب ضيّقة في التواءات هاربة. مررنا بأبواب كبيرة كأنّها تخفي خلفها منازل فسيحة. بعدها انزلقت وراءه إلى درب يضيق في آخره. صعد درجتين إلى باب صغير، فتحه، وحين همّ بالدخول أشار عليّ بأن أتبعه. تردّدت، أمرني أن أدخل. كانت لهجته صارمة مع ابتسامة تعلو وجهه فتنفرج شفتاه عن فم دون أسنان يثير التقزّز. فجأة أحسست برجلي تثبت في الأرض. جمدت في مكاني، بين خوف غريب وشهوة امتلاك العصفور الجميل. اقترب منّي، مدّ يده نحوي. حاول إمساكي. طرأ تحفّز في عينيه. تراجعت إلى الخلف إلى حدود باب الدرب أحاول أن أؤمن منفذًا للهروب.

نادى عليّ بصوت جهوري، برزت من حدقتيه شرارة زادتني شعورًا بالخوف. حاول الاقتراب منّي مرّة أخرى، زدت ابتعادًا استعدادًا للفرار. غضب وسبّني.

الدرب فارغ من المارّة والأقواس الكبيرة المرتفعة بين أسوار المنازل التي تآكل جيرها وانتشرت عليها بعض النباتات الفطريّة، زادتني قرفًا.

عاد إلى الداخل ثم خرج، ترجّاني أن أدخل، مدّ يده إلى جيبه، أخرج بعض الدراهم يبسطها في يده محاولاً إغرائي. لم أزدد إلاّ تعنتًا. فتح الباب إلى نصفه وقال لي:

ـ تعالي، انظري إلى العصفور الذي أريد أن أهديه لك.

بابتسامة بلهاء ساخرة، وهو يقلّد صوت العصافير، مدّ أصابعه إلى أسفل بطنه، وهو يردد:

ـ تو تو تو..، ويقهقه ضاحكًا.

أفزعتني الصورة، لم تطل لحظة شرودي، جريت بكلّ ما أوتيت من قوّة نحو دكّان سي الأمين. تكاد قدماي تخونانني فأقترب من السقوط. أصرخ وأجري وأصرخ.

غادرت مما الزاهية السجن، عمّ المنزل احتفال طوال اليوم. أزاحت عنها أعوام السجن نضارة وجهها وبدأت غضون واضحة تظهر على جبهتها. لكنّها لم تفقد صلابتها.

عادت الدار الكبيرة إلى حالتها قبل المداهمة. رجع الزوّار خلف الزائرات إلى الدار، واستعادت مما الزاهية سلطتها وهيبتها بسرعة داخل الحي. عدت للإقامة معها في الدويريّة، وإلى مشاهدة صور كادت تتلاشى ببطء من ذهني، فعادت الآن ملحّة لتفرض عليّ أسئلتها المحيّرة.

اكتسح الضجيج منزلنا من جديد، وعادت الشاطا إلى الباب كقابضة عن كل عمليّة دخول.

ويومًا، علا لغط وعربدة سكّير بالباب. قصد إحدى الضيفات، ضايقها، وصفعها. عويلها أيقظ حنين مما الزاهية إلى سطوتها، فقفزت إلى الخارج حاملة في يدها عصا بقاطعة من الحديد. وفي خفّة لافتة هوت على المعربد بقوّة جعلته يتهاوى، والدماء تكسو ثيابه.

تشعّبت تجارة مما زاهية، لم تعد مقتصرة على أجساد

الضيفات، شملت مختلف أنواع الخمور المهرّبة من سبتة وقطع الحشيش. وبقدر ما ازداد نفوذ مما الزاهية وازدهرت تجارتها بقدر ما زاد نفوري من وضعي. وضعي الذي أتناساه فأعود إلى اللّعب واللهو مع أطفال حيّنا.

صرت أستغفل مما الزاهية وأرافق الأطفال. نتوجّه جماعة إلى مقبرة المدينة التي لا تبعد كثيرًا عن حيّنا. أذهب مع سعيدة رفقة الأطفال. يرافقني علي إذا ما صادف خروجنا وجوده بمنزل مما رحمة. نتسلّق الأشجار نقفز على القبور، ونعبث بالأزبال. أوغادًا كنّا، نستهدف القطط والكلاب بأحجارنا، ويحاول الأولاد أن يغرسوا فيها سكاكينهم، التي اعتادوا على حملها بين طيّات أثوابهم. نمرح ونلعب بما يصلح للعب وبما لا يصلح له. وكنّا نفضّل لعبة الاختباء، نتوارى بين القبور، وراء الأسوار، داخل بقايا أضرحة أو خلف جذوع الأشجار الهرمة. لعبتنا تلك كانت تمتّعنا، إلى حين عودتنا ذات يوم والمغيب يقترب.

اختفى خالد. حسبنا أنّه يواصل معنا اللعبة. خلناه تخلّف عنّا لأنّه لا يستطيع الركض كثيرًا لسمنته المفرطة. نادينا عليه، رفعنا أصواتنا. تمتزج أصوات الفتيات والأولاد بالنداء عليه ولا مجيب.

عدنا حيث كنّا نلهو. تفرّقنا نبحث عنه والخوف يغزونا. من أعلى التلّ المطلّ على الخندق العميق الذي يحدّ بغابة المقبرة صاح أحد الأطفال في هلع. دقائق كنّا حوله. وجدنا خالد مدمى الوجه، تلتفّ حول عنقه زند يد عريضة لشخص ذي وجه خلته

وجه ذئب مكشّر. كان يحمل في يده الأخرى خنجرًا، وهو يحاول أن يسرع بطريدته على حافة الخندق، في حالة من الهياج والاضطراب. حين اقتربنا منهما، شرع يشتمنا ويهدّدنا بفحش. أمّا خالد فلم يعد يقوى على طلب الاستغاثة، خلناه مات. بدأنا نسب. نهدّد، نولول، وندور حول الأشجار وحول أنفسنا، لكن لا أحد منّا يجرؤ على الاقتراب.

إنّه الوروار بأذنيه المطوّحتين عن رأسه المدبّب، صداه كمجرم خطير يخترق كل أحياء مدينتنا. ترديد اسمه كان كفيلاً بأن يثير لدينا زوبعة خوف، يزيد من إذكائها عشقه المرضي لاغتصاب الأطفال. من تسوّل له نفسه أن يقترب منه ليمزّقه بخنجره؟ قوّة بنيته مكّنته من أن يسحب خالدًا دون عناء كبير. لم أملك إلاّ الصراخ. طاقة صياح لا أدري كيف تملّكتها.

أحطنا بالوروار، أخرج الأطفال سكاكينهم وتسلّحنا بالحجارة. حاول اصطياد أحدنا بضربة من مطواه. فزع الأولاد هربوا. عدنا، وأخذنا نصيح ونسب، لم أكن أعي ما أقول. رميت حجرًا بيدي المرتجفة خوفًا أستهدف بها رأس الوغد. لم أصبه. ابتعد علي عنّا، شرع يحوم حول الوروار، حمل قطعة حجر كبيرة وصوّبها بقوّة نحوه. أصابت الضربة رأسه، تهاوى الوروار وقبل أن يصل جسده الأرض ويرخي يده عن عنق خالد، انقضّ عليه علي والأطفال يتبعونه، ينهالون عليه بسكاكينهم، في شجاعة غير معتادة، يشرمون لحمه بنهم.

يزداد شغبنا، ونهرول نحن الأطفال يوم الجمعة لاستقبال شيخ ومريدي زاوية حيّنا. ويبدأ الترقّب في الجهة السفلى من المقبرة. على ضفّة الوادي صارت تلوح لنا معالم الموكب. غبار يتطاير وصدى دقّات طبول تسايرها نغمات المزمار.

ينجلي الموكب، ونقترب منه في وجل واحترام. حصان قوي أبيض بغرّة سوداء، تتدلّى على عنقه خصلات شعر فضِّيَّة تزيده جمالاً. يمتطيه رجل ذو وجه صبوح، تكسوه لحية بيضاء طويلة، وعينان ساهمتان واضحتا المقلتين يزيدهما الكحل نضارة.

سبحة بحبّات غليظة تتدلّى حول عنق شيخ الطريقة وعلى جلبابه فاقع الصفرة، وعمامة خضراء تشدّ رأسه تتدلّى خلفها ضفائر شعر مسدلة. حاشيته تسير أمامه وحوله. يتقدّم الموكب شخص يضرب على طبل كبير. أذكار تتلى في ترتيل منغوم، ومريدون أخذ بهم الوله يؤدّون رقصات تلج بهم عالم الوجد فيهيمون في دنياهم تلك وأعينهم منغلقة.

يفتننا المشهد، ويسلب ما بدواخلنا، فنشارك الفقراء إلى ورد الشيخ رقصتهم، ملتمسين بدورنا أن يهبنا من ورده ومن بركته.

لكنّنا لم نكن إلاّ أطفالاً، بقدر ما ننبهر بسرعة، بقدر ما ننسلخ من إعجابنا بسرعة أكبر، فنعود إلى شغبنا.

يستل اللُّوكُو، الفتى كبير الرأس، حجرًا من جيبه ويصوّبها نحو فرس الشيخ مستهدفًا ما بين فخذيه الخلفيّتين.

يهتزّ الحصان، يحرن من شدّة الألم. يكاد الشيخ يهوي، فتتسابق الأيادي لتتلقّاه وتشدّ لجام الفرس. ينطلق ملازم للشيخ بسرعة وراء اللوكو الذي هرب إلى المقبرة.. تمرّسه على القفز فوق القبور أنقذه من يدي الملازم الأسود ضخم الجثّة. أسرعنا خلفه، مقتفين أثره عن بعد. وبعدما كَلَّ مرافق الشيخ من تتبّعه، وقف اللوكو ينتظرنا بابتسامته الباردة المعهودة بدكان الإسكافي سَرْطَحا.

رجل مسنّ يعتبره السكّان مثقّفًا من مثقّفي حيّنا. دكّانه يبعد عن منزلنا بدقائق، قبالة ساقية الحيّ، حيث يتشاجر أطفال ونسوة مع بعضهم البعض عندما يختلفون حول من وصل دوره لملء أوانيه. وكثيرًا ما يحتدم الشجار ليصبح تقاتلاً، فينتهز سرطحًا الفرصة، وما أكثرها، ليخرج من دكّانه ويحاول، كحكيم، أن يصالح بين المتشاجرين، لاعنًا الفقر والجهل وضياع العلم.

كنّا نجتمع حوله في دكّانه، حيث تتكدّس أحذية متآكلة لم تعد صالحة للاستعمال. وهو لا يبدأ بإصلاح فردة حذاء إلاّ بعد أن يشرح لنا كيف أصبحت غير صالحة، ثم يستفيض في وصفها فيصف نوع جلدها وتاريخ وبلد صنعها، قبل أن يتأسّف على

حالها وعلى حالنا ويلعن الزمن ماسخ الأحذية، والجهل والفقر وضياع العلم.

وللعلم عنده حكاية، فقد أوتي به من بلد بعيد من أدنى الشرق، محمّلاً فوق ظهور الحمير والبغال والجمال إلى المغرب، ومن هناك حلّ بالأندلس. ثم يتأسّف كيف أنّنا أضعناه وضيّعناه.

صعب أن تنجلي عن مخيّلاتنا ذكريات الطفولة دون أن تترك ندوبًا في أرواحنا وأجسامنا. ودون أن تطاردنا، أو أن تورّطنا ونتورّط فيها.

ترهقني ذاكرتي، تتفتّح منها دهاليز واسعة على طفولتي، فتضيق روحي من ثقلها، وأنا أسرد لنفسي انتفاضة الطفولة فيّ.

كنّا صغارًا. ننتفض بسرعة فرادى وجماعات، مع أنفسنا ضدّ أنفسنا وضدّ الآخرين. وننضمّ نحن الفتيات إلى جوقة الذكور، في كل حملة للدفاع عن نبق حيّنا الذي يحدّ مباشرة بالمقبرة، حيث تنمو أشجار النبق بكثرة حول القبور. ولنبات السدر هذا طعم حلو، غير أنّ لذّته تكاد تكون منعدمة.

ويحلو لنا الصغار تذوّقه أكثر، حين نبدأ في التهيّؤ للحرب حماية له من أطفال حيّ الجبل المتاخم لحدود المقبرة من جهة الشمال. يقترب نضج الثمار فتصبح المقبرة ساحة للمعركة، وتبدأ المواجهة تراشقًا بالحجارة عن بعد، لتكبر، فيبدأ تبادل الضرب بالعصي وأشباه السيوف.

تستمرّ المواجهات، ويحثّنا الإسكافي سرطحا على الدفاع عن نبات النبق، ومواجهة أطفال الحيّ المجاور الطامعين في قطف ثماره، ويؤكّد لنا أنّه مادامت الشجيرات تنبت بجانب حيّنا، فلا حقّ لأبناء حيّ الجبل في ثمارها. ويزداد حماسه، فيلقّننا أنّ جهادنا جهاد مشروع، وأنّ الشهم هو الذي يموت دفاعًا عن عرضه وأرضه، وطبعًا عن ثمارها. وبعد أن يلعن الجهل والفقر وضياع العلم يحكي لنا، بتفاصيل دقيقة، كأنّه عايشها، كيف قامت حرب ضروس مدمّرة بين قبيلتين عربيّتين سببها التهام ناقة ضالّة لقبيلة بني عجيب ورقة عشب يابسة بأرض قبيلة بني غريب.

ثم يقوم بإحضار لوحة خشبيّة متربة إلى دكّانه، ويجعلها خريطة لميدان الحرب. يجمعنا حوله ويرسم عليها بالفحم مواقع الهجوم والفرّ والاختباء، ويشرع في تلقيننا خطّة الحرب معلنًا أنّه استقاها من خطط الحرب العالميّة الثانية. وبعدها يوزّع علينا المهام العسكريّة: فيالق ذكور مهاجمة وأخرى مدافعة، وفيالق لقلب ووسط وجناحي الهجوم، وفيلق للفتيات.

ولفيلق الفتيات ثلاث مهامّ في هذه الحرب، فنحن إمّا مزغردات مشجّعات، أو ممرّضات للجرحى، أو نائحات بعد الهزيمة. تقسيمه العسكري لمهامنا في حرب الدوم لم يكن يشمل ابنه اقشيقش. كان يمنع عليه مشاركتنا اللعب والحرب ضدّ أطفال الحيّ المجاور، كما منعه من الالتحاق بالمدرسة، مدّعيًا أنّ ابنه في عمر الرجال، ولا يجوز له أن يشارك الأطفال لهوهم وتعليمهم، ما دام العلم ضاع. واقشيقش في نظر والده طفل منزّه

عن لعبنا وعن أحاسيسنا، كما هو منزّه عن المدرسة. طفل مدثر دائمًا ببذلة رجل كهل. جسده النحيل والتجاعيد التي طفت على وجهه قبل الأوان وانحناءة ظهره المتعمّدة وكلامه الذي يستقيه من علوم وحكم والده جعلت منه صبيًّا مثير المظهر غريب الأطوار.

والغرابة ليست في أطواره فقط. حتى في تاريخ تسجيل ميلاده. فاقشيقش صبي بعمر عشر سنوات مسجّل في كناش الحالة المدينة بتاريخ ازدياد يجعل منه رجلاً شابًّا في الحادية والعشرين.

والمُخْتَار هو ولد سرطحا، لكن اسمه منسي بين صغار وكبار الحي، حتى والده كثيرًا ما كان يزل لسانه حين ينادي عليه أو حين يتحدث عنه فينطق (ابني اقْشِيقْشْ) قبل أن يستدرك خطأه ويلعن الشيطان الذي أنساه اسم ابنه.

عمر واسم اقشيقش المسجّل بهما في سجلّ الولادات تخصّ أخاه المختار الذي توفي منذ إحدى عشرة سنة. فحين رزق الإسكافي بابنه هذا رفض تسجيله كمولود جديد. صار يعتبره أمام اندهاش سكّان الحيّ ابنه المختار الذي مات. ولمّا يستفسره أهل الحيّ عن سبب فعلته تلك يجيبهم أنّه من غير المستساغ أن لا يكون لبناته الثلاث أخ أكبر منهنّ، يحميهنّ ويراقب تصرّفاتهنّ. وحين بلغ اقشيقش سنّ التمدرس رفضتْ إدارة مؤسّسة التعليم قبوله كتلميذ جديد لكون شهادة ميلاده تحمل سنًّا تفوق ثمانية عشر عامًا. كما رفض والده بتعنّت تصحيح خطئه، فواصل الابن

حياته يتلقّى دروسًا من والده في إصلاح الأحذية، وينهل من علمه الذي أخذه من منابع علم لا يدركها إلاّ هو.

تنطلق الحرب، ويبدأ أطفال حيّنا بالهجوم، كما أمرهم الإسكافي. ثم يعودون بسرعة ليحتموا خلف القبور والأضرحة، وبين الأشجار، استعدادًا لصدّ هجوم فيالق العدوّ.

كنّا ننفّذ خطط سرطحا بحذافيرها، فنقبع نحن الفتيات مختبئات خلف السور الكبير للمدينة القديمة المحيط بحيّنا، حاملات عدّة التمريض المكوّنة من لفائف ثوب وسكّر وعجين دقيق الفلفل الأحمر لتضميد الجراح. ولم نكن نحن الصغيرات نقف لوحدنا مشجعات فريقنا، فإلى جانبنا كانت الطنطانية زوجة حمادي، الذي يقسم كل يوم أنّه سيطلّقها في اليوم الموالي ولا يفعل. ولا ندري أيّة لذّة تجد في مؤازرتنا. كانت تتلصّص على أعدائنا، فتخبرنا بعددهم وطريقة استعدادهم، بنوعيّة أسلحتهم وبجهة تجمّعهم ومخابئهم. لم تكن تكتفي بموافاتنا بالأخبار فقط، كانت تقوم بفتح الباب الكبير لبرج سور المدينة، وتتسلّق سلاليمه رغم سمنتها، إلى أن تبلغ قمته. من هناك، وبصياح كأنّه مندفع من مكبّر صوت، تشرع في حثّنا على الإقدام والاستبسال والصبر في مواجهة الكار والأعداء أطفال الحيّ المجاور.

يتكاثر ضحايا المواجهات، أطفال شجّت رؤوسهم، آخرون فلحت جباههم، أو رشمت ندوب وجوههم وأطرافهم. ولكن، طيلة سنوات المواجهات لم يكن أحد من الأطفال يقطف ثمر

النبق من المقبرة، ما أن تقترب الثمار من نضجها حتى يتمّ قطفها ليلاً، فلا نجد في الصباح إلاّ بقايا أغصان. ولم يكن يقوم بجنيها إلاّ الكبار الجائعون في حيّنا.

* * *

وسرطحا الذي يستلذّ إذكاء المواجهات والمنازعات كيفما كان نوعها، كثيرًا ما يصبح طرفًا فيها، عندما يحاول أن ينازع الفقيه اخْنَانَة في مكانته العلميّة والدينيّة بين أهل الحارة، وهو أستاذ اللّغة العربيّة الذي يقطن في عقبة حيّنا. ممّا خلق بينهما صراعًا مؤجّجًا، كأنّهما ورثاه منذ أزمنة غابرة، لكنّه صراع يحمل في جوانبه الخفيّة تواصلاً ومودّة مبهمة لم نكن نحن الصبية نجد تفسيرًا لها.

كثيرًا ما كان الإسكافي المهووس بالثرثرة والتدخّل في شؤون سكّان الحارة ينتقد الفقيه ويقلّل من شأنه ومن علمه وتديّنه. ووصل به الغيظ حدّ اتهامه بالأنانيّة والزندقة، وشتمه في غيابه.

غير أنّ بغض الإسكافي للأستاذ سرعان ما يخبو. إذ أن تغيّب الفقيه لمدّة يومين عن المسجد كفيل بأن يخلق لدى غريمه قلقًا عليه، ويدفعه إلى زيارة بيته للاستفسار عنه.

بينما لم يكن الفقيه اخْنَانَة، الذي عرف بين أهل الحارة بعلمه وورعه وتواضعه، يحمل ضغينة أو حقدًا على جاره. كان يحسّ أنّه بعلمه ومعرفته ومكانته بين سكّان الحيّ هو أرفع منه شأنًا.

وحتى لا تنتابه نوبة انفعال أو غضب يتفادى اللقاء به، ولسانه يردّد بصوت خافت:

ـ وأعرض عن الجاهلين لئلاّ يصيبك جهلهم بالأذى.

مع أنّ سرطحا لم يكن ليتذوّق خشوع صلاته إلاّ قرب أو خلف احنانة، حيث يتوجّه قبل وقت الآذان بقليل إلى ساحة السوق السفلي ويقف متلصّصًا بين المسجدين المتواجدين بها. وما إن يرمق الفقيه مقبلاً للصلاة حتى يختلط بالمارّة متظاهرًا أنّه حضر لتوّه. ثمّ يدخل خلف الأستاذ للمسجد الذي يختاره. وحين تنتهي الصلاة يعترض سبيله ليحاصره بأسئلة حول مختلف شؤون الدين والدنيا، فيجد الفقيه نفسه مجبرًا على الردّ والبحث عن الأجوبة، لأنّه يرى أنّ نشر العلم والمعرفة وتنوير طريق السائلين والضالّين فرض عين على كل مسلم متعلّم. كما أنّ الإسكافي لا يطرح أسئلته إلاّ وهو محاط بالمصلّين التوّاقين إلى معرفة علوم دنياهم وآخرتهم. فيبدأ احنانة في لملمة ما تذكّر ممّا قرأه أو حفظه من محتويات الكتب التي نهل منها معرفته، ثم يشرع بعدها في الإجابة.

غير أنّ التصرّف المتهوّر للإسكافي، باندفاعه وسلاطة لسانه، كثيرًا ما نغّص على المنصتين للفقيه مجمعهم. كما أنّ أسئلته الغريبة غالبًا ما سبّبت للأستاذ انفعالاً حادًّا، فيحدجه بنظرات غضب علّه يتوقّف، ثم يفقد أعصابه حين يتمادى سرطحا في هرائه فينهال عليه يقذفه بكلام لاذع:

ـ أيّها الأمّيّ البليد.

وفي عناد بدوي، لا يكفّ سرطحا عن طرح أسئلته، ومرارًا ما حاول الإجابة عنها قبل الفقيه. كما أنّه لم يصمت حين عيّره حنانة مرّة بأنّه جاهل وأمّي، بل عقب عليه بملء صوته:

أنا مثقّف أكثر منك، معرفتي وعلومي أخذتها من أفواه علماء نهلوها من كتب حملت من منابع العلم بمشارق الأرض ومغاربها. فيقاطعه الأستاذ وابتسامة سخرية شامتة تعلو محياه:

ـ نعم أنت مثقّف في الجهل.

والمواجهة بينهما لا تمرّ دائمًا دون عراك، خاصّة وأنّ سرطحا يتحيّن الفرصة لإحراج الفقيه بطرح أسئلة يعتبرها احنانة تجريحًا له وإهانة لشخصه. فقد وجد سرطحا فرصة مواتية يوم كنت متحلّقة مع مجموعة من الصبية حول فقيهنا قرب باب المسجد الكبير في ساحة السوق السفلي، وهو يشرح لنا في حديثه كيف أنّنا نحن البشر خلقنا من آدم وآدم خلق من تراب. وفي تحدٍّ صارخ وتهكّم فظّ صاح سرطحا:

أيّها الفقيه:

ـ إن كنّا نحن خلقنا من آدم وآدم خلق من تراب، فمن أين أتى الحمار؟

احتد غضب احنانه، وفي حالة تهيّج غير مسبوق نحى الملتفّين حوله بيده وارتمى على غريمه سرطحا، أمسك بخناقه، وشرعا يتجاذبان ويتبادلان ضربات صافعة من يديهما.

سقوطهما أرضًا دفع الواقفين حولهما، بعدما أفاقوا من دهشة

اللحظة التي تشابكا فيها، أن يتدخّلوا بقوّة لفضّ العراك والحيلولة دون تطوّره.

رافقنا الأستاذ محاولين تهدئته بكلمات تناثرت من أفواهنا دون انتظام، وهو ينفض الغبار الذي علق بجلبابه. ثم لحق به سرطحا:

ـ أعطني فردة بلغتي.

نظرت إلى أقدام الرجلين، وجدت كل واحد منهما ينتعل نعلين جلديين مختلفي الألوان. واحد أبيض وآخر أصفر. انتعل كل واحد فردة نعل الآخر بعد انتهاء العراك. الفقيه الذي كان صدره يعلو ويهبط بشدّة من فرط غضبه وجدها فرصة لشتم صاحبه:

ـ يا الملعون، ابدأ أنت بنزع نعلي عن قدمك النجسة.

أمام إصرار كل واحد منهما أن يبادر الآخر بخلع نعله، عادا يتجاذبان من جديد ويتبادلان اللّكم والصفع.

لم نقف نحن الصبية محايدين هذه المرّة، قرّرنا أن نتدخّل لوقف الشجار. شرعنا نحول بينهما في تحايل نساند احنانة ضد سرطحا. وحتى يتمّ إبعاد المتخاصمين عن بعضهما تقدّم علي وبعض الصبية وحملوا سرطحا على أكتافهم وهم يهتفون باسمه في حماس. علت بسمة انشراح محياه، تبعها بضحكات وكلمات لإبراز انتصاره على خصمه، ومكانته لدى سكّان وأطفال الحيّ.

انضمّ عدد آخر من الأطفال إلى حاملي الرجل، وهم يهتفون ويصرخون، فرحين بالحصول على فرصة جديدة للهو ممتع.

وكقائد محتفى به، شرع سرطحا محمولاً على الأكتاف يلوّح بكلتي يديه مادحًا شاكرًا المحتفين به. لكنّ احتفاءنا لم يكن سوى احتفاء أطفال. وكانت لعلي واللوكو طريقتهما الخاصّة في الاحتفال بسرطحا. رفع علي يده وأدخلها تحت جلباب الإسكافي ليصل إلى الجذع القابض لفخذيه ويقرصه بيديه بكل قوّته. وسرطحا يصرخ بكل جنون، كانت يد اللوكو تشارك يد علي لتتبعها أيادي معظم الأطفال في الليّ والقرص والتمزيق.

شرع يصيح بكل طاقاته من حرقة ألمه. ابيضّت عيناه، هوى بيديه يصفع ويلطم الصبية الحاملين له. من شدّة آلام ارتطام يديه بوجوههم وأقفيتهم أرخوا له ليهوي، فسقط أرضًا وأنينه يتعالى من فرط القرص، ومن وقع ارتطام عجيزته بقطع الأحجار المرصّفة للساحة، اندفع يئنّ في شبه نواح:

ـ أولاد الزنى، لقد كسروا مقدّمتي ومؤخّرتي.

فيردّ الفقيه على غمغمته النائحة:

ـ ليتهم كسروا عظمة لسانك.

إلاّ أنّ سرطحا ليس بالشخص الذي يتّعظ. فهو ما فتئ يحشر أنفه في كل شؤون أهل الحي، وفي كل شاردة وواردة.

فقد وقف بعد ذلك بأيّام مشجّعًا يحثّ عائلة آل شرمون على الانتقام لشرف أخيهم الذي أهدرته زوجته.

يومها حاصرت شَرْمُونة وأخواتها وإخوانها بيت أخيهم المهاجر في إسبانيا. تسلّق الرجال السطوح، وتوارت النساء خلف منعطفات الدروب، حملوا سكاكينهم وهراواتهم وانتظروا خروج عشيق زوجة أخيهم التي كانت تعيش مع ابنتها الصغيرة. التفّوا حول المنزل كفرقة للتدخّل السريع تتحيّن لحظة الهجوم. وكنّا نحن الأطفال رفقة بعض النسوة والرجال الفضوليين نطلّ من خلف الأبواب الموارية والنوافذ ومن مداخل الدروب.

الزوجة تستغيث وتطلب من الجيران إشعار رجال الأمن، وتقول إنّ الشخص المحاصر معها في المنزل ما هو إلاّ حمّال لأسطوانات الغاز، حضر لاستبدال القنّينة الفارغة. يطلّ من النافذة رجل في مقتبل العمر ملوّحًا بملقاط يستعمل لتركيب الأسطوانات، يلهج بحروف متقطّعة، مؤكّدًا أن لا علاقة له بالمرأة، وأنّه لم يحضر إلى المنزل إلاّ لتغيير القنّينة.

آل شرمون يستقبلون صراخ المرأة وعويل ابنتها وأقوال الحمّال بالتهديد والتجريح بكلمات فاحشة وقذف قارورات زجاج فارغة وقطع أحجار على نافذة المنزل. تقدّمت شرمونة نحو الباب وطلبت من إخوتها تكسيرها، رمتهم زوجة أخيهم بأصص الأزهار. تراجعوا ورابضوا حول المنزل.

حضر الفقيه احنانة وهو يلهث تعبًا من صعود عقبة الزقاق بسرعة، محاولاً أن يصل قبل أن تقدم عائلة شرمون على اقتراف

جريمة ما. وجد جارنا سرطحا الذي حضر قبله آخذًا في إذكاء نار الانتقام من الزوجة.

ألجم حضور الأستاذ سرطحا مؤقّتًا، ممّا سهّل على الفقيه إقناع عائلة الزوج بالعدول عن مهاجمة المنزل وانتظار قدوم الشرطة. انتظار دام ساعات قبل اعتقال المتّهمين.

غير أنّ انتظار سرطحا أمام باب زوجة شرمون لم يدم ساعات فقط. ظلّ ثلاثة أيّام مترقّبًا قدوم الزوج من إسبانيا ليمطره بكلام دون مقدّمات:

ـ غواية الشيطان تهدّ طاقة الصبر لدى الإنسان. شهوة المرأة تسع وتسعون درجة، بينما شهوة الرجل لا تتعدّى درجة واحدة. زوجتك أغواها الشيطان وكان أجدر بك أن تضبطها متلبّسة بالخيانة.

ثم طفق وكأنّه يقوم بإخراج فيلم؛ يوضح للزوج كيف كان عليه أن يختبئ ويتسلّل ويحمل كاميرا حتى يضبط زوجته وهي تخونه. إخراج لم يوقفه سوى تدخّل احنانة وهو ينفث غضبًا:

ـ دع عنك أعراض الناس، لا شيطان أكبر منك أيّها الشيطان الأكبر. وتوجّه نحو الزوج مخاطبًا وكأنّه ينزع الكلمات من داخل أحشائه:

ـ السي شرمون كن على يقين من أنّ زوجتك بريئة، ولم يلاحظ سكّان الحي أدنى شبهة عليها، منذ إقامتها في حيّنا.

يعقب الزوج زافرًا:

ـ لماذا أدخلت رجلاً إلى بيتي في غيابي.

يردّ الفقيه، وقد عيل صبره:

ـ ثلاث سنوات من الغياب قد يجعلها تنسى أوامرك.

أخلي سبيل المرأة وحمّال أسطوانات الغاز. لم تجد المحكمة قرائن لإثبات التهمة. بباب المنزل وقف الزوج ماسكًا يد ابنته تحيط به أخته وبعض أفراد عائلته، ونحن الأطفال والصبية، بعدما أخبرنا الإسكافي بضرورة الحضور باكرًا لمتابعة عودة الزوجة الخائنة.

تقدّمت المرأة نحو باب المنزل، منعها شرمون من الدخول، وهو يسألها:

ـ لماذا أدخلت الرجل إلى بيتي؟

راود وجه المرأة انكسار. وجه انطفأ تورّده منذ يوم الاعتقال. ردّت وهي تتنهّد:

ـ لم يكن سوى حمّال قنينات الغاز.

يعقب الزوج، وهو يحدّق في السديم:

ـ لكنّي أكّدت عليك أن لا تتصلي في غيابي إلاّ بأختي شرمونة.

تقاطعه في شرود تكسره زفراتها:

ـ يومان وقنّينة الغاز فارغة. أخبرت شرمونة، ولم يحضر أحد

من أفراد العائلة. كنت ملزمة لأن آتي بحمّال القنينات، لكي أعدّ طعامًا لابنتنا.

بحسرة قلب يتمزّق، أجابها:

ـ إنّني مجبر على تطليقك.

أحنت الزوجة رأسها، ثم خاطبته متوسّلة:

ـ لا تطلّقني، اعذرني، لقد سهوت، جلّ من لا يسهو.

لكنّ لسرطحا رأيًا آخر، فمخافة أن يسامح شرمون زوجته، توجّه إلى أخته بصوت مرتفع، حتى تنفذ كلماته إلى مسامع الرجل والحاضرين من حوله:

ـ شرمونة، كوني متأكّدة من أنّ أخاك ليس بديّوث حتى يواصل حياته مع امرأة أدخلت رجلاً إلى بيته في غيبته، فهو سيقوم بتطليقها اليوم.

طلّق شرمون زوجته، أخذ طفلته وعاد إلى إسبانيا.

أبى سرطحا أن يتوقّف عن تقديم نصائحه، وكأنّه أحسّ لأوّل مرّة بوخز ضمير يؤرقه، أصبح كلّما رمق تجمّعًا لأكثر من شخصين أو طفلين إلاّ قصدهم مخاطبًا:

ـ في الحقيقة، كلّنا نعرف أنّ شرمونة هي التي قضت سنين من عمرها عاهرة بالدار الكبيرة عند للا زاهية. وما كان لها أن تضغط على أخيها ليطلّق زوجته من أجل شبهة لا أساس لها من الصحّة. وكلّنا نعلم أنّ الزوجة عرفت بعفّتها وسموّ أخلاقها، لكن...

وخشية أن ينسحب المتحلّقون من حوله، وهو لم يكمل خطبته، يشير علينا بأن لا ننسحب، مع أن لا أحد من المجتمعين حوله أبدى رغبته في الانصراف. وبتأثّر وحزن واضحين، وبراءة مفتعلة بإتقان، لا نعلم كيف يصبغ بها ملامحه، يسترسل:

ـ عندما خلقت الدنيا، خلق غبار الحزن والفرح، فتمّ رشّ غبار الفرح ساعة من الزمن. وأمّا غبار الحزن فرش لملايين السنين، وآثار غبار الفرح في الدنيا هي قوس قزح، الذي نادرًا ما نراه. وآثار الحزن هي السحاب، وأنتم تعلمون أنّه كثيرًا ما تخرج السحاب من مخابئها وتطلّ علينا، حتى في عزّ الصيف.

كانت حادثة العراك وتطليق شرمون زوجته سبب قطيعة بين سرطحا والأستاذ الذي اعتبرها قطيعة نهائيّة، فخرج عن وقاره، وأصبح ينعت خصمه بالسافل النمّام قاذف المحصنات، والمحرّض على الإثم والعدوان.

إلاّ أنّ تلك القطيعة لم ترض سرطحا، فأخذ ينهج أسلوب اللين والتودّد مع احنانة لعلّه يتقرّب إليه من جديد، لاعنًا بعد الجهل والفقر وضياع العلم الشيطان الذي كان سببًا في تعكير الجوّ بينه وبين الأستاذ، وسببًا في تطليق شرمون زوجته.

أصبح يتحيّن فرص تواجد الفقيه وهو يحدث من حوله، فيقترب من الجمع ويقف في صمت وخشوع مفتعلين، يعلّق بصوت لطيف، ويهزّ رأسه موافقًا على كل ما يقوله الأستاذ، يثني على كلامه ويدعو السامعين إلى الهدوء، لاكزًا الصغار، من أجل التزام الصمت، ولو لم تصدر منّا حركة أو صوت يخلّ بهيبة

المقام. وكثيرًا ما يجفّ حلق خطيبنا من كثرة الكلام فيستعيض عن ريقه برشفة ماء يبلّل بها حلقه.

حلقه يجفّ أكثر ويعلو وجهه احمرار، تداهمه بعدها صفرة شاحبة، وتصبح نبرات صوته أكثر خشونة وغلظة حين يتطرّق في حديثه إلى موضوع كثيرًا ما يتناوله، بينما لم نكن نعيره اهتمامًا، موضوع تخلّف العرب والمسلمين وتقدّم الغرب.

ينطلق الفقيه في حديثه مستشهدًا بما كان لنا من أمجاد عبر التاريخ وريادة في ميدان العلوم والأدب، ثم يواصل بنبرة تشي بأنّ الموضوع يسبّب له وجعًا مدمّرًا:

ـ لماذا نحن نولي نحو الاندحار؟... كيف نتبع سياسة النعامة والغرب يتقدّم؟ يرشف جرعة ماء من كوب يقدّمه له سرطحا في احترام ووقار، ليواصل:

ـ ليتنا كنّا مثل النعامة، نخفي رؤوسنا في الرمل، نحن نخفي ونحشو رؤوسنا في الوحل والمياه العادمة القذرة.

ولا يفوته، قبل إتمام حديثه، أن يحثّ الصبية على الاجتهاد في الدراسة وطلب العلم.

ـ إيّاكم والتقاعس، طلب العلم جهاد، اتبعوا نهج أجدادكم، انطلقوا، الغرب انطلق من علومنا. وقبل أن يتمّ كلامه قاطعه سرطحا:

ـ قل لهم أيّها الفقيه كيف أنّ النصارى، انطلاقًا من شكل حرف واحد في لغتنا، حرف لماليف «لا» اخترعوا آلة الكماشة.

يفاجأ الفقيه بفكرة سرطحا الغريبة. يجفّ ريقه أكثر، فيحدجه بغضب مجنون. يبصق على الأرض فلا يخرج من فمه إلاّ صوت بصقة دون رذاذ. ثم يولي لحاله، ونتبعه نحن غير آبهين بسرطحا وهو يحثّنا على البقاء كي نصغي لأقواله.

أنصرف، وأنا أحمل في طيّات نفسي بداية أسئلة كبيرة تموج وتتيه داخلي وتتيِّهني في دوّامةٍ تلهيني وتنسيني، ولو لحظات، ألم انتمائي للدار الكبيرة.

نعود لفرحنا، لجرينا ولهونا، لانشغالاتنا اليوميّة البسيطة. ويحلّ العيد، عيد الأضحى، وتغمرنا الفرحة، نتنقّل بين مجموعات الأكباش والمعز المعروضة للبيع بساحة السوق. ويتباهى سكّان حيّنا، من منهم سيشتري خروفًا أكبر، رغم الفقر والحاجة. ويحضر اجبالة من ضواحي مدينتنا، بدو يعرضون بساحة السوق تيوسًا وأكباشًا عادة ما تكون هزيلة.

وبدونا تطبع الأغلبيّة منهم طيبوبة تصل حدّ البلادة، تمكن الباغيات المتردّدات على السوق من الإيقاع بهم سريعًا والتوجّه بهم إلى الدار الكبيرة لاختبار فحولتهم. وتتحوّل البلادة إلى بلاهة حين ينتهون من عرض ماشيتهم فيتوجّهون حاملين حلم ربح سهل إلى صاحبة لعبة الجورنال.

امرأة طويلة القامة، شعرها أبيض مخضّب بالحنّاء، تحمل آثار شارب حلق لتوّه. عادة ما تلفّ رأسها بمنديل أحمر. التجاعيد المنتشرة فوق وجهها تجعل تقاسيم ملامحها تلوح بقسوة شديدة، يخالها الناظر إليها عن بعد أنّها رجل. تقف أمام طاولة كبيرة رست فوقها عشرات اللفائف مملوءة قطعًا صغيرة من ورق الجرائد، مرتبة على شكل هرمي. وتردّد بصوت جهوري مبحوح:

ـ ارْبَخْ، ارْبَخْ، ارْبَخْ،

ـ أنا سُلْطَانَة بِنْتْ الكَبْرَانْ.

ـ لُعْبَة الجُورْنَال.

ـ يْلعْبُوها النْسَا والرْجَالْ.

ـ من طَنْجَة إلى وَزَّانْ.

ـ من تِطْوَانْ إلى وَهْرَانْ.

ـ من فَرَنْسا إلى الطَّالْيانْ.

ـ هَدِيَّة مِنْ دُونْ خْوَانْ.

ـ ارْبَخْ، ارْبَخْ...

صوتها القوي يجعل المارّة بالسوق يلتفّون حولها في انجذاب. تصلّي على النبي في البداية، تعرّف السامعين بالدون خوان، ثري إسباني يعاني مرض السرطان، وهو الآن يتمزّق ألمًا ويحتضر.

ما أن تكمل تلك المقدّمة حتى ترفع يديها إلى السماء:

ـ اللّهُمَّ يا رحمان يا رحيم، يا من ليس من قدره مفرّ، خفّف آلام دون خوان، واجعله يموت على شهادة الإسلام، آمين.

تنظر بشزر إلى كل من تحلّق حولها:

ـ الذي لم يدع معي لهذا السيّد ما هو بمسلم.

فترفع الأكفّ إلى السماء، ويدعو بعض أو كل الواقفين بورع

المتّقين. وأرفع يدي مع الرافعين وأدعو مع الداعين.

تسري بين أهل الحيّ إشاعات عن أنّ سلطانة بنت الكبران هي المعشوقة الأخيرة لدون خوان الثري الأوروبي العاشق، وأنّه بعدما ابتلي ببلية الجري خلف تنّورات السيّدات، كما يصفونه في بلاده، وجد ضالّته المنشودة التي بحث عنها طيلة حياته في سلطانة بحيّ السوق السفلي، فأنهى بحثه المحموم وسكر بعشقها حتى الثمالة. بيد أنّ سعادته لم تدم، فقد عاجله مرض السرطان، فقرّر منح كل ثروته لأهل وزوار حيّ معشوقته، مشترطًا أن تقوم سلطانة، التي يؤكّد سرطحا أنّ الدون خوان تزوّجها في الخفاء، بتوزيع ثروته عن طريق الحظّ بواسطة لعبة الجورنال.

وإن لم نكن نحن الأطفال نشارك سرطحا صدق الحكاية الغراميّة لسلطانة مع دون خوان وزواجها منه، فإنّنا كنّا نشاركها لعبتها وخداعها للمتحلّقين حولها.

كنّا نعود من المدرسة، نتوجّه عند شَالَالَا مساعد وملازم سلطانة، يناول كل واحدة منّا درهمًا، فنقف نحن الثلاثة، أنا وسعيدة وعائشة خلف الجماعة المتزاحمة على الطاولة. وحين نصل إلى الإفريز قبالة سلطانة، وبلهفة وبراءة الأطفال، تمدّ كل واحدة منّا درهمًا ثمن لفافة نأخذها ونقدّمها لها لتفتحها.

مستشهدة ببراءتنا، تصيح سلطانة بأعلى صوتها:

ـ ارْبَحْ، ارْبَحْ.

تمزّق اللفافة، وبحركة خفيفة من يدها، تضاهي حركات

المؤدّين للألعاب السحريّة، تبرز مجموعة من الأوراق الماليّة بين ورق الجرائد الممزّق، وتفتح اللفائف الأخرى، فيطفو خاتم لامع أو ساعة يدويّة بإطار ذهبي، وتصيح معلنة ربحنا. تملأ صيحاتها المكان وآذان المتجمهرين، فتشرئبّ أعناقهم متطلّعة إلينا، حالمين بربح يوازي ربحنا. وبعد أن نأخذ الغنيمة، ننسحب من الحلقة في اتجاه درج حيّنا. فلا نكاد نطأ مدخل الدرب الأوّل، حتى يلحق بنا شَالَالَا.

شَالَالَا رجل كهل مفطوس الأنف، يميل لون سحنته إلى الاصفرار، لباسه بذلة واسعة تستضيف جسده النحيل. يلحق بنا لاهثًا، يتطاير الزبد من بين شدقيه، يوقفنا بعنف ويسلبنا ما ربحناه، ثمّ يعوّضنا بدرهم لكل واحدة ثمن مشاركتنا، فننصرف فرحات.

وسلطانة امرأة ذكيّة تستطيع أن توهم عشرات المتتبّعين لها بجدِّيَّة لعبتها، فتتركهم مشدودين في انتظار حصّتهم من الثروة التي يوزّعها دون خوان مقابل درهم واحد.

وتتسع الحلقة وتتسع الخسارة، ولم يكن المشاركون يستطيعون متابعة يد سلطانة وهي تحشو اللفائف أوراقًا ماليّة أو حليًا ذهبيّة بخفّة لا تدركها أبصارهم. وأبصار البدو البسطاء تعمى أكثر حين تغري سلطانة أحدهم في بداية اللعبة وتمكّنه من ربح مبلغ بسيط أو خاتم ذهبي من المعدن المزيّف. فتنتفخ أوداجهم شرها، ويقامرون بما يملكون. لكن أوداجهم تنتفخ غضبًا حين يشترون كلّ اللفائف، فلا يجدون داخلها إلاّ الهباء، وورقًا ممزّقًا. وتصل

خسارة بعض البدو في أيّام عيد الأضحى إلى إهدار ثمن قطيع من الماعز. وإذا ما حاول أحدهم الاحتجاج، تحيط به وجوه هدّها الشر من أتباع سلطانة، بخناجر معقوفة لامعة تجعله ينسحب مجترًّا خسارته المرّة، أو جراح جسده إن هو حاول الاحتجاج.

يستمرّ نهش جيوب المتحلّقين البسطاء، ويستمرّ تواطؤنا ومشاركتنا نحن أطفال الحيّ بالتناوب في اللّعبة، حتى لا يفطن الساعون في الربح. وتستمرّ اللعبة وتلعب سلطانة لعبتها الأخيرة.

ويكون الفوز هذه المرّة للهباء. والهباء يتناثر في حيّنا كما يتناثر الدم. والدم الذي يسيل عادة بقوّة معلنًا حياة جديدة، يتناثر في حيّنا بسهولة معلنًا موتًا جديدًا، وواضعًا خطًّا فاصلاً بين الحياة والموت.

ومثلما تخرج سلطانة الأوراق الماليّة والحلي المزيّفة بسرعة من بين أصابعها، تفتح مطواها بدقّة وخفّة زرع الأوراق والحلي بين ورق الجرائد الممزّق. وفي غفلة من كل الرائين، وبغضب مهيمن وروح مقبوضة بالجنون، كان سكّينها ينغرس في بطن أحد المحتجّين لتندلق أحشاؤه أمام لغط وهرولة الجموع. حاول المطعون أن يجري غير مصدّق ما جرى، شادًّا يده إلى بطنه محاولاً إعادة ما نشر منه. بجزع فظيع كان يهرول، هاربًا صارخًا، صامتًا، دون اتجاه، كأنّ كابوسًا لعينًا يطارده، ليصل إلى ساحة الفدّان، ليسقط، وليسلم روحه إلى باريها في هدوء. ولأصدم بعدما تعبت من الجري خلفه، وأنا أحثّه على الإسراع إلى المستشفى.

كان الشاب قد عيّن مؤخّرًا مدرّسًا بمدرسة حيّنا. حيّنا هذا الذي اعتاد أن يلفظ كل من لا يودّ أن ينتمي إلى فظاعته. وكأنّ القدر قد خطّ له هذه المحجّة دون رجعة.

وقف الشاب أمام سلطانة منبّهًا يعظها بأن توقف هذا الهراء وغبن أولائك البسطاء، لكن أنفاسه وحدها هي التي توقّفت. كما توقّفت بلادة أهل البدو ذات عشيّة.

سلطانة زجّ بها في السجن، دون أن نعلم إن كانت قد ودّعت دون خوان أم لا. وشَالَالَا الملازم لها أورث نفسه لعبتها، وأصبح في ظرف وجيز يقف مكان معلّمته أمام الطاولة، يردّد أقوالها ويحاول فبركة وتقليد خفّة حركاتها.

قلنا له:

ـ أنت لا تتقن الإلقاء يا شَالَالَا. دعك من هذا.

لكنّه رفض.

ـ أنت لست بخفّة حركة اليدين، حتى توهم المتفرّج بجدِّيَّة اللعبة.

ـ ولو.

ـ حركاتك التمويهيّة غير متقنة، الأوراق الماليّة تظهر بوضوح حين تحاول وضعها داخل ورق اللفافة.

ـ قيل له... قيل له...

ـ قلنا له: توقّف.

لكنّه أبى، إلى أن توقّفت عقول بعض المراهنين الحالمين بالربح يومًا عن التمادي في الحلم الخادع، فرفعوا هراواتهم وانهالوا على عظام شَالَالَا. طلي جسمه دمًا، وفطس أنفه أكثر وهشّمت أسنانه.

تعافى شَالَالَا بعد شهور وعاد إلى ساحة السوق، ليصيح مناديًا، ليس على لعبة الجورنال، بل على سجائر مهرّبة يبيعها بالتقسيط في ساحة السوق، ورذاذ اللعاب يسبقه من فمه حين يهم بالنداء.

سرير الأسرار

انتهى الموسم الدراسي، حلّت العطلة الصيفيّة. كان فصل الصيف في بدايته حين استعجلتني مما رحمة لأرحل معها إلى القرية التي ينحدر منها زوجها. قرية صغيرة على مشارف بحر وادي لو. الحالة الصحّيَّة للسي الأمين كانت قد عرفت تدهورًا مفاجئًا. قلّت قدرته على الحركة، وطبع جسده هزال شامل. وأصبحت مما رحمة مضطرّة للتوجّه إلى قريته لتنوب عنه في جمع حصصه من غلل القطع الأرضيّة الصغيرة التي يعهد بها لبعض فلاّحي بلدته لحرثها وزرعها، وللإشراف على الطاحونة المائيّة للقرية التي هي في ملكيّته، بعدما رحل القائم بأعمالها.

غبار كثيف من تراب الحمري يتطاير حول جنبات الشاحنة الحمراء المكتظّة وهي تتسلّق المرتفعات الجبليّة. بين أكياس وصناديق ومعز وعجل وعدد من القرويين أمدّ رجلي وأتّكئ على كتف مما رحمة. الطريق المنعرج الوعر وغير المعبّد يجعل الشاحنة ترتجّ بعنف، فنتمايل على بعضنا وعلى الحيوانات المرافقة لنا.

اقتربنا من القرية. تحت زرقة السماء ينبسط أمام عيني البحر في صفاء بلّوري. ومن سطح الشاحنة أهوي بنظري إلى منحدرات

نازلة نحو مهاوي سحيقة تحدّها مياه البحر الممتدّة إلى أفق أزرق غامق لا منتهى له.

وصلنا إلى المدشر. عشرات من الدور على شكل تجمّعات سكنيّة صغيرة متباعدة عن بعضها تتنافر على روابي وتلال، يفصل بينها النهر وتحيط بها أشجار كثيفة.

استقبلتنا أخت سي الأمين، امرأة نحيفة حادّة النظرات بقسمات دقيقة لوجه أسمر لوّحته الشمس. طلبت منّي مما رحمة أن أناديها عمّتي. استفسرتنا عن الحالة الصحِّيَّة لأخيها، وأخبرتنا، في أسف، برحيل المشرف على الرحى، وتوقّف عمليّة الطحن، وتلميح القرويين، بعد نفاذ صبرهم، بدفع غلالهم إلى طاحونة القرية المجاورة، بعد أن انتهت عمليّة الحصاد منذ مدّة.

لم يفض البحث، الذي استغرق ثلاثة أيّام من طرف مما رحمة وعمتي، إلى العثور على شخص يرغب في القيام بأعمال المطحنة، خاصّة وأنّ عمليّة الطحن لا يمكن أن تتمّ إلاّ في اللّيل. رحى الطاحونة تدور بقوّة الماء الجاري الذي ينطلق صبيبه من منبع متفجّر بين الصخور الرماديّة الضخمة في سفح الجبل الكبير المطلّ على القرية. وحين يحلّ فصل الصيف يتمّ تغيير مجرى مياه الوادي طوال النهار، حتى يتسنّى لسكّان المدشر سقي البقع الأرضيّة الصغيرة المغروسة قبالة الطاحونة، ولا يسمح بمرور الماء لقناة المطحنة إلاّ بعد آذان صلاة العشاء.

أيّامًا بعدها، نشرت عمّتي خبر وصول عامل المطحنة من مدشر مجاور. عمّ الارتياح سكّان القرية. تكدّست أكياس الشعير

والقمح والذرة داخل مبنى المطحنة وأمام بابها تحت الشجر الظليل، في انتظار تشغيل الرحى.

* * *

أظلم اللّيل، مدّت إليّ مما رحمة جلبابًا صوفيًّا لابن عمّتي. طلبت منّي أن ألبسه بعدما ارتدت هي جلبابًا رجّاليًا بنّيًّا وانتعلت حذاءًا مطاطيًّا ينتعله الذكور. حملت هراوة طويلة، أشعلت فانوسًا يدويًا، أسدلت قبّ الجلباب على معظم وجهها ثم أمسكت بي من يدي وغادرنا المنزل.

كانت الدار تقع فوق كدية متحجّرة، مشرفة من ارتفاع على مجرى النهر. نزلنا عبر طريق ضيّق منحدر تحيط بجوانبه أشجار من نبات الصبّار. الحصى ينقلب تحت أرجلنا، ننزل بحذر مخافة أن ننزلق. وصلنا إلى طريق أوسع من الأوّل، ومنه انعطفنا إلى جرف بين أشجار كثيفة، حيث أشرفنا على غدير يفضي إلى بركة ماء واسعة.

قطع هذه المسالك جعلني أستشعر خوفًا، لكن ضغط يد مما رحمة على أصابعي كان يمدّني بقوّة أستعيد بها الشجاعة التي كنت بدأت أفقدها.

وسط البركة وضعت قطع أحجار كبيرة معبرًا للمارّة. قفزنا فوقها بحذر وانتباه مخافة الزلق والسقوط. خرير الماء، خشخشة الأعشاب، حفيف أوراق الشجر، تلافيف الظلام، سرّبت الخوف إلى أعماقي من جديد. الضفادع الرقطاء القابعة حول البركة تثير

لديّ اشمئزازًا. نظراتها إليّ، وهي تحمل صغارها فوق ظهورها تزيد من هلعي. كنت أحيا خليطًا من الفزع لم تنتزعني منه سوى مما رحمة التي تطلب منّي الانتباه وترديد البسملة.

المطحنة في منطقة بعيدة عن مساكن القرية. الظلمة حالكة. لم نكن نهتدي إلى الطريق إلاّ بحكم تعود مما رحمة على قطعها. اعترضنا حاجز مرتفع من فروع الأشجار، يضعه القرويّون لمنع الخنازير والأيائل والبهائم من التسلّل إلى البقع المغروسة. عبرناه، أمشي خلف مما رحمة بتعثّر. جلبابي الصوفي الثقيل يعرقل خطواتي. تزلّ رجلاي من حين إلى آخر. الأوراق الكثيفة لأشجار الجوز والكستناء والدردار الباسقة وأغصانها المتفرّعة تحجب عنّا نور القمر. ولجنا خندقًا تتعرّش أشجار العلّيق حوله وفوقه مثل سقف مديد. عبوره كان مخيفًا.

وصلنا الطاحونة، مبنى صغير بسطح مكسو بأوراق بردي يابسة يقع عند انحدار سيل جارف للنهر، حيث يضيق مجرى المياه ليخترق بقوّة قناة المطحنة، ويعمل على دوران عمود الرحى في حركة دائريّة ميكانيكيّة، تجعل حجر الرحى المستدير يدور بقوّة وسرعة تمكّنه من طحن الحبوب.

أغلقت مما رحمة الباب، عمدتها بعمود من الخلف، نزعت عنها الجلباب. سألتها:

ـ لماذا لبسنا جلابيب الرجال.

فأجابتني:

ـ معرفة أنّ امرأة مصحوبة بطفلة يبيتان لوحدهما بهذا المبنى قد يعرّضنا لسوء.

شمّرت على ساعديها، أفرغت كيس حبوب في جعبة الرحى، أزاحت المكبح وانطلقت عمليّة الطحن. ما إن تفرغ من طحن محتوى كيس حتى أساعدها في رفع كيس آخر لتفريغه في جوف الطاحونة. انتابني خوف غريب. تعبت، هدير الرحى لا يتوقّف، وخرير الماء المتدفّق بقوّة أسفل الطاحونة لا يفتر. رغبة كبيرة في النوم، أقاومها، لكنّني أغفو جالسة، فتوقظني مما رحمة بلطف:

ـ حاولي أن تبقي يقظة، لا تنامي، سيتملّكني الخوف إن نمت.

أجاهد كي أبقى مستيقظة. يتراءى لي نور الفانوس خيوطًا لامعة متداخلة صاعدة إلى السقف. أضع يدي حول ركبتي وأنكمش.

أودّ لو يتوقّف ضجيج الرحى الذي كان صدى عزفه يقودني نحو سبات عميق.

أفقت عند بزوغ ضوء الفجر على صوت مما رحمة وهي تناديني. لبست جلبابها. غسلنا وجهينا بماء النهر البارد كالثلج. دثّرت مما رحمة رأسها، لم تعد تظهر منه سوى عينيها. أسدلت على رأسي قب جلبابي، وقفلنا راجعتين إلى الدار.

أثناء عودتنا، أمعنت النظر فيما كان يفزعني خلال الليل، جداول مياه الغدير، بركة الماء، الخندق المغطّى بأشجار العلّيق،

الأشجار العالية التي خلتها أشباحًا عملاقة تناسلت من جوف الظلام. ظلام وددت لو أقول له:

ـ ها هو النور يجلي عنك رهبتك، يفضح حلكتك الواهية وجبروتك الزائف.

كانت مما رحمة تسرع في خطواتها محاولة أن لا يتعرّف علينا أحد من أهل القرية. حين نلتقي بأحدهم تبادره بالتحيّة أو تردّها عليه بلهجة رجّاليّة حازمة.

بعد رجوعنا إلى المنزل، توجّهت عمّتي صباحًا إلى المطحنة وسلّمت ما تمّ طحنه إلى أصحابه.

في الليلة الموالية، منعتني مما رحمة من الذهاب معها إلى الطاحونة. ارتدت حفيظة، البنت الكبرى لعمّتي جلباب أبيها ورافقتها.

بعد إعفائي من السهر والمبيت في الرحى، ظللت أقضي معظم أوقاتي في اللعب مع الأطفال. أجاريهم في تسلّق الأشجار والارتماء في بركة الماء. كما أصبحت أرافق بهيجة ابنة عمّتي الصغرى لرعي صغار المعز. عند حلول الغروب أعود إلى المنزل متعبة مغمورة بطعم لذّة اللعب في فضاء طلق أرحب وأمتع ممّا كنت أستشعره وأنا ألعب في حديقة منزل سي الأمين، أو بمقبرة المدينة.

عند مقدم الليل، أتناول عشائي مع عمّتي وأبنائها، بعدها نجتمع حولها في استدارة فوق الحصير نصغي لحكاياتها

وخرافاتها الجميلة التي تخطف بها ألبابنا، وتهيّؤنا لغفوة حالمة في عالم نوم لذيذ تحرسه أحلام ورديّة ممتعة.

ذات صباح دافئ، رافقت بهيجة لجلب الحشائش لبقرة حلوب. طلبت منّي أن نتوجّه إلى أطراف البحيرة الكبرى حيث ينمو نبات مدرّ للحليب، لم أكن قد وصلت إلى البحيرة أو شاهدتها عن قرب من قبل.

مسافة غير قصيرة قطعناها قبل أن نصل إلى ربوة تطلّ على البحيرة. يطلق عليها القرويّون اسم البحيرة الكبرى، لامتدادها على مساحة كبيرة واسعة. تلال مشجّرة تحيط بجوانبها، لون مياهها يميل إلى خضرة داكنة، تعلو حافاتها أشجار سامقة، وتصبّ فيها شالّالات هادرة مندفعة بقوّة يتطاير معها رذاذ مرتفع نحو السماء.

حين علمت عمّتي أنّنا أحضرنا الكلأ من جرف البحيرة الكبرى غضبت بحدّة، وانفجرت معاتبة وموبّخة ابنتها التي سبق أن نبّهتها إلى عدم الاقتراب من البحيرة. وقبل أن أستفسر عن السبب، قالت في انفعال:

ـ البحيرة مسكونة بجنيّات، وسأحكي لكن عن ذلك في الليل.

تناولت العشاء على عجل، ولهفة الاستماع إلى حكاية عمّتي عن البحيرة والجنيّات تغمرني.

تحلّقت مع الأبناء حول أمّهم. اعتدلت في جلستها، وقبل أن

يستدرجها أحدنا للحكي كما تعوّدنا، كانت قد تهيّأت سارحة بعينيها، وهي تدعونا إلى الإصغاء:

كنت طفلة صغيرة في مثل سنّكم، حين رافقت في إحدى الليالي الممطرة أمّي للسهر في الطاحونة. مع حلول الهزيع الأخير من الليل ألمّ بي مغص شديد، اضطرت معه أمّي للعودة بي إلى المنزل قبل حلول الفجر، وما إن أشرفنا على البحيرة الكبرى حتى وقفنا مبهوتتين لما رأينا.

كانت سبع جنيّات بقامات مشيقة، وشعور حريريّة مسرّحة فوق أكتافهنّ وثياب مخمليّة شفّافة ملوّنة بألوان قوس قزح يسبحن في سكون وسط البحيرة. رؤيتهن أذهبت عنّي وجعي. ورغم الحلكة الدامسة كان نور مشعّ يسطع عليهنّ فتنكشف وجوه فاتنة مشرقة ناصعة البياض، تتوسّطها أفواه منفرجة عن أسنان مرصوصة كعقود من الماس، وأنوف رقيقة نافرة. كنّ يرتفعن من الماء، ثم يغصن في صمت وجلال فتتكوّن بعد غطستهنّ دوائر بألوان نورانيّة تتسع ثم تنطفئ لتظهر من جديد. دوائر انبهرت لها أبصارنا من قوّة إشراقها.

لعبتهنّ تلك كنّ يعدنها لمرّات. سيطر علينا سحرهنّ. أطلنا التأمّل فيهنّ، والخوف الذي تملّكنا عند رؤيتهنّ في البداية انزاح عنّا في هدوء. وما إن حلّت نسائم الصباح حتّى التفتن نحونا، وبابتسامات فاتنة ودّعننا ورحلن إلى عالمهن.

ـ وأين يذهبن؟

تسأل بهيجة أمّها.

ـ يغصن تحت مياه الشلّال المتساقطة من أعلى الجرف ثم يرحلن.

أردفت بهيجة:

ـ وأين دنياهنّ؟

ـ تحت البحيرة، تحت الماء، وسط البحر، لست أدري.

يقاطعها أحد أبنائها:

ـ لماذا لم يتعرّضن لكما بشر؟

ـ هنّ عرائس جنّ مؤمنات.

ـ هل يمكنني أن أراهنّ؟

يضيف الابن.

بنوع من الفتور تجيب الأم:

ـ لا يمكن، فهنّ لا يظهرن إلاّ للإناث.

بحماس وتوفّز سألتها:

ـ إذن أنا أستطيع رؤيتهنّ!

لكنّها لم تجب عن سؤالي، بدأت تتثاءب، وأمرتنا بأن ننهض للنوم.

بعد سماعي حكاية عمّتي بدأت تخامرني رهبة مفعمة بسعادة

خفيّة. وفضول لا حدود له يساورني، فضول أن ألتقي بالجنيّات ذات يوم وأتعرّف عليهنّ.

خوفي ورغبتي لم ينطفئا بانتهاء الليلة. فقد سكنني ترقّب مشوب بقلق وبحلم ملاقاة الحوريّات. ما إن أختلي بنفسي حتى أتخيّلهنّ راقصات وسط الماء، وما إن أصل جهة البحيرة حتى تتراءى لي أطيافهنّ وهنّ سابحات، ينظرن إليّ بعيون جميلة، وابتسامات لطيفة تعلو محياهنّ. وساوسي تلك التي أقلقت راحتي، حتى إنّني رغبت في العودة إلى المدينة، لم يبعدني منها سوى تعرّفي على ابنة جارة لعمّتي.

المهداوية قامة فارعة وظهر واسع وردفان ممتلآن. شعرها الأشهب ينسدل بكثافة حين تنزع خمارها. وجهها القمحي اللون يعلوه حاجبان كثّان. ملامحها ذات التقاسيم الممتلئة تضفي عليها جمالاً ذا إثارة خاصّة، يعكس أنوثة فيّاضة.

كثيرًا ما تطلق العنان لصوتها الرقيق بنغمة شجيّة مردّدة أغاني جبليّة، تبدؤها بموّال ذي كلمات شاكية حزينة، أحسّ لدى سماعها وكأنّها تخترق صخور الجبل وتخترقني.

أصبحت أرافقها، حين تقصد عين الماء لملء الأواني والسطول، أو حين تعتزم الذهاب إلى النهر لغسل الملابس. وكثيرًا ما أشاركها أشغال البيت التي تقوم بها في نشاط لا يفتر. تستيقظ مع حلول الفجر لتهيئ لأمّها وجبة الفطور. بعدها تتجه إلى الإسطبل، تخرج المعز بعد فصل صغارها عنها وربطها، ثم تقوم بتنظيف الزريبة من مخلّفاتها.

حينذاك، تخرج أمّها إلى باحة الدار، وتقف متأهّبة للانطلاق إلى الرعي بمنديلها المخطّط بالأحمر والأبيض، وفوطتها البيضاء المسدلة حتى حزامها الصوفي الأزرق، وشمسيّتها التي تقي بها أشعّة الشمس.. الأمّ تذكّرني بمما الزاهية. امرأة مهيبة الوقفة،

عليها علامات حزم ورصانة الرجال، ما أن تقف وسط المعز ويدها قابضة على قاطعة حادّة للأعشاب حتى تنبح الكلاب مرحّبة محرّكة أذنابها، معلنة استعدادها لمرافقة موكب الرعي وحراسته. وبصفير حادّ تعلن المرأة الانطلاقة، فيسير القطيع بانتظام خلفها.

أشياء لا أدرك كنهها تشدّني إلى المهداوية رغم أنّها تكبرني بعدّة سنوات. استلطفتها. أشعر تجاهها بارتياح ربما من رقّة أحاسيسها، وطيبوبتها أو من حزن عميق غامض أستقرؤه في عينيها.

وأنا واقفة بجانبها وسط غدير ماء أمام حجر كبير أملس مسطّح أعدّه القرويّون لغسل الملابس فوقه، شرعت أحكي لها عن الحياة في المدينة، عن بيئتي، عن تربيتي، عن نفسي وعن أمّي مما زاهية وأمّي مما رحمة. عن سي الأمين، وعن ذلك الشخص الذي أدعوه أبي.

حكيت لها بصدق. كانت أوّل مرّة تجرّأت فيها على الحديث بصراحة دون إحساس بالنقص. استرسلت في الكلام وهي تنظر إليّ باهتمام من غير أن تتوقّف عن فرك الغسيل. وفجأة، كأنّ نارًا لسعتها، هبّت واقفة وتوجّهت نحوي باستغراب، وباغتتني تسألني بتعجّب:

ـ أنت لا تعرفين من ولدتك؟! لا تعرفين من تكون أمّك؟!

أعادت سؤالها مرّات بانفعال.

تغيّرت نظرات عينيها. اكتست حدقتيها آثار قلق غريب. عادت

لفرك الغسيل بحدّة وغضب، صارت تهوي عليه بشدّة، بضربات من الهراوة التي تستعملها القرويّات لجعل غسيلهنّ أنظف.

توقّفت على حين غرّة. حدّقت فيّ بعينين تلمع فيهما شرارة حنق لم أعهدها فيها. وفي نزق حملت الملابس المعدّة للغسل ورمت بها في النهر وغادرت المكان، وهي تدمدم وتشتم بصوت مبهم وتبكي. ارتميت على تلك الألبسة مخافة أن تجرفها المياه. أعدت بعضها فوق الحجر، لاقيت صعوبة في رفع حزامها الصوفي الكبير المثقل بالماء، حمل هذا الحزام الكبير يثير فضولي، تتمنطق به القرويّات فوق أقمصتهنّ وقفاطينهنّ لستر أردافهنّ وشدّ بطونهنّ، كما كنّ يحفظن بين ثناياه أشياءهنّ الخصوصيّة، المشط والنقود والمفتاح و. . .

بعد أن بذلت جهدًا أتعبني، وبعد أن غمر الماء كل جسدي، استطعت أن أعيد الحزام فوق حجر الغسيل.

لحقت بالمهداويّة مسرعة. وجدتها تنتحب تحت شجرة كستناء. خشيت إن كنت خلال حديثنا قد خدشت شعورها بكلام جارح أو أسأت إليها بتصرّف مشين. ما إن اقتربت منها حتى علا عويلها، ثم شرعت تتخبّط ضاربة بيديها ورجليها فوق العشب.

رغم ذعري، حاولت تهدئتها، دقائق مرّت قبل أن تخفّف من حدّة نحيبها، وهي تحاول جاهدة كتم صوت نشيجها، فيصدر عنها بكاء مختنق مبحوح.

بصوت مرتعش متقطّع خاطبتني:

ـ أنا كذلك لا أعرف أبي، أنا ابنة زنا، لن يتزوّجني أحد.

فغر فاهي من وقع ما سمعت، لأوّل مرّة أجد من تشاطرني فجيعتي، وتقاسمني قدري. وأنا أتخلّص من بعض اندهاشي، استفسرتها:

ـ أأنت مثلي، ليست لديك أم؟

بصوت مختلط بنشيج ردّت عليّ:

ـ المرأة التي أعيش معها هي أمّي، هي التي ولدتني. ولكنّني لا أعرف من هو أبي، أمّي لم تتزوّج أبدًا، ولذلك لم يقبل أيّ رجل من القرية أن يتزوّجني. وها أنا أبور.

شهقات حادّة تتصاعد من صدرها. اقتربت منها، مددت يدي على ظهرها محاولة مواساتها. ذكّرتها بأنّ حالتي أفدح وأفظع من حالتها، ما دمت لا أملك أمًّا ولا أبًا. وفي تعليق سابق لسنّي قلت لها:

ـ لا تقلقي، إنّك جميلة، وألف رجل يتمنّاك.

همدت. بعد فترة حملنا الغسيل وعدنا أدراجنا. عرجت بي على طريق ملتو لم أكن قد مررت به من قبل. قطعنا مسالك متشعّبة قبل أن نصل إلى كوخ منفرد بين الأشجار. بيت صغير بجدران من حجر دون تمليس وسقف من أوراق بردي متآكلة. نادت على صاحبه، فخرج إلينا الطيّب البوهالي بلحية مهملة دون تشذيب، وشعر يخفي معظم وجهه، وجلباب مرقّع. ابتسم لي ورحّب بالمهداويّة.

حين كنت أشاهده يمرّ في القرية بمظهره الرثّ، أتجنّب اللّقاء به. بعض أهل القرية يحكون أنّ البحر قد رمى به ذات ليلة عاصفة على الشاطئ، وفي رواية آخرين أنّه قصد القرية مشرّدًا هاربًا، لسبب لا يعرفونه ولم يبح هو به. حين حلّ بالقرية أخذ ينام تحت الأشجار. قدّم له السكّان كوخًا مهجورًا، بعدما رمّموه، فأصبح يساعد كل من يرغب في القيام بأيّ عمل مقابل ما يسدّ به رمقه.

خاطبني:

ـ أهلاً بنت المدينة.

استفسرته المهداويّة عن حاله، شكرها. ونحن منصرفات قالت لي وهي تتنهّد:

ـ هذا هو الشخص الوحيد الذي تقدّم للزواج بي، رفضه أهلي. أمّا الآخرون، كل رجال القرية، فلا يرغبون إلاّ في نهش جسدي لكوني ابنة زنا لا أليق للزواج بأحد منهم.

ما حكته لي المهداويّة وما عايشته معها لم يكن إلاّ ليضاعف من حيرتي، يحيلني على حياتي ومصيرها، فتتوقّد في نفسي وقدة من لهب. تساؤلات لم أكن بعد قادرة على سبر معانيها.

لم تسر الأيّام التي خلّفت حادثة يوم الغسيل على المنوال المعتاد. تغيّرت حالة المهداويّة بشكل مفاجئ. أصبحت متوتّرة، حانقة ومضطربة. حاولت يومًا مرافقتها، لكنّها لم تسمح لي بذلك. قمت بعدها بزيارتها في البيت. كلّمتني باقتضاب، ثم اندفعت في اتجاه الغابة المتاخمة للربوة.

شاعت أقوال غريبة في القرية عن تصرّفاتها. ردّدت النسوة أنّ حالات من الجنون بدأت تنتابها، وأنّ جنًّا قد سكنها. خبر نوباتها انتشر بسرعة، أضحى حديث كل أهالي القرية. أمّها صارت تلازمها بعدما شغلت راعيًا ليقوم بتسريح معزها.

بعض المتطوّعات من نساء وفتيات القرية أصبحن يقضين وقتهنّ قرب المهداويّة لمؤانستها، ومحاولة التخفيف عنها ومساعدة أمّها.

حدّة نوبتها ازدادت ذات ليلة قمراء. على حين غرّة انتفضت وقرّرت مغادرة البيت، رغم محاولات الحاضرات تهدئتها وثنيها عن عزمها. خرجت قاصدة مدخل الشاطئ الصخري حيث تعلو غابة كثيفة يسمّيها أهل القرية الدغل.

يطلّ الدغل على حافّة البحر، يمتدّ جهة اليسار منه منحدر جبلي، ينزل بعشرات الأمتار إلى الماء، تتخلّله تجاويف صخور تشكّلت مثل كهوف صغيرة تحجبها بعض الأشجار.

حينما أشارك الفتيات الرعي نتحاشى اقتراب مواشينا من المنحدر خشية أن تنزلق وتسقط في تلك المهاوي السحيقة المفضية إلى البحر. ارتطام الأمواج بالتجاويف المنخورة أسفل الجرف يدفع بالماء متصاعدًا نحو السماء، متبوعًا بصفير يحتدّ كلّما كانت الأمواج أكثر صخبًا.

مخافة أن تتوجّه المهداويّة إلى حافّة الجرف غير البعيد عن الدار، قامت النسوة خلفها. حاولن قطع الطريق عليها، لكنّها

انسلّت في نزق من بين أيديهنّ وعطفت إلى المسلك المؤدّي نحو الدغل. انتظرنا عودتها طيلة الليل. بكاء أمّها لم يتوقّف. لم تعد إلاّ عند حلول الصباح، والتعب باد عليها.

تفاقمت حالتها. حين تعاودها نوبتها العصبيّة تحرن كمهرة. يشعّ من عينيها بريق رعب، يرتجف جسدها بعنف، تصفرّ سحنتها، يغيب سواد عينيها. وجهها الخمري تداهمه بقع دائريّة بلون الكدمات. يسيل لعاب أبيض خاثر من فمها. تغمغم. وتغيب عن وعيها للحظات، وما إن تستفق من حالتها حتى تتهيّأ للرحيل ومغادرة البيت.

تترجّاها أمّها أن لا تخرج. تحاول النسوة الحاضرات منعها. لكنّها تصرّ، وتشقّ طريقها، غير آبهة بنظراتهنّ المتسائلة. نتبعها نحن الأطفال، لكن ما أن تهمّ بولوج الدغل حتى يسيطر علينا الخوف فنقفل راجعين.

تكرّر هروبها ليلاً. لم تكن تعود إلاّ بعد الشروق، وهي مكدودة. تتمدّد وتنام جنب أمّها المجهدة بالبكاء.

مع كل اقتراب مغيب، تظهر عليها علامات تشنّج غريبة، وكأنّها تتهيّأ لنوباتها. أصبح أهل القرية يهابونها، يخافون من شيطانها الذي سكنها، ويخشون على بناتهم من عفاريتها.

وبعدما ضجروا من تصرّفاتها، قرّروا إحضار معالج لمثل هذه الأمراض المستعصية، لعلّ تعاويذه وطلاسمه تشفيها من حالتها، لكن علاجه لم يجد معها نفعًا. لم يتمكّن من تهدئتها، فقرّر

السكّان ربطها وشدّها بحبال طويلة طوال الليل والنهار، وتناوبت بعض المتطوّعات على حراستها. قبلت الأمّ الحالة الجديدة لابنتها على مضض، كانت تبكيها بحرقة يزيد من لهيبها إحساسها بأنّها المسؤولة عمّا يحدث لابنتها، يوم حملت بها حملاً سفاحًا.

أصبحت أزورها من حين إلى آخر. ما عادت تطاوعني دموعي كلّما شاهدتها وهي مربوطة في شبّاك النافذة، أو في جذع شجرة. كما أنّ حالتها لم تعد تخيفني، صرت أقترب منها أطعمها وأحكي لها من جديد عنّي وعن المدينة. أحاول أن تشاركني الحديث، لكنّها تبقى سادرة في شرودها، وحين أريد تنبيهها تنظر إليّ تبتسم في ذهول. القيد كان محكمًا حول يديها ورجليها، يمنعها من محاولة المشي.

مرّت ليلتان وهي على تلك الحالة، قبل أن يتأكّد لي ولسكّان القرية في الليلة الموالية أنّ المهداوية لا تنتابها نوبات حمق، بل إنّها حقًّا مسكونة بعفريت ضالّ، هائم بحبّها ومهووس بعشق أجساد النساء الجميلات.

كنت أقوم بمساعدة بهيجة في طهي الخبز في فرن منزل المهداويّة. بعض الجارات مجتمعات في باحة الدار يتبادلن الحديث، وأمامهنّ ترقد البنت مقيّدة بجانب أمّها التي بدأت تعوّد نفسها على فاجعة ابنتها، وتدفن في أعماقها مرارتها الموجعة.

السماء غيوم داكنة، أتت بها رياح شرقيّة نادرة الهبوب على هذه المنطقة خلال فصل الصيف. فجأة دوّى نداء غريب قادمٌ من الغابة المطلّة على البحر غير بعيد عن الدار.

ـ مهدااااوياااه

شقّ النداء مسامعنا بعنف. أصخنا السمع بإمعان، خلناه وهمًا. وقبل أن نحاول إقناع أنفسنا بوهم الصياح، تكرّر النداء نفسه بحدة أشدّ، ثم توالى بعد ذلك لمرّات.

في هلع أقبلت مسرعة على النساء المجتمعات حول المهداويّة. وجدتهنّ فزعات أكثر منّي، وهنّ يردّدن البسملة.

على إثر الصراخ حلّ حشد من الجيران بالمنزل. لم يخل الحشد من الرّجال. تواصل النداء. شلّ الخوف حركات كل الحاضرين. شرعت المهداويّة تغمغم، علت دمدمتها، أصبحت عويلاً مرعبًا، ثمّ تحوّلت إلى زمجرة وزئير مخيف. طفقت تمدّ بصرها تجاه مصدر الصوت الذي تعالى من جديد، وبدأت تحاول فكّ وثاقها.

ارتعدت أطرافنا نحن الصغار رعبًا. الكبار كذلك لم يسلموا من رجفات الخوف. كنّا نحاول الاحتماء بهم فوجدناهم يبحثون عن من وعن ما يحتمون به. تطلّعت إلى مما رحمة التي حضرت للتو، أستجدي لديها شجاعة تطمئن رهبتي، وجدتها ثابتة الملامح، لا تظهر عليها آثار بلبلة. من حركة شفتيها عرفت أنّها تردد بعض العزائم والآيات القرآنيّة.

ـ المهداااااوياااااااااااااااااااااه

فجّر النداء من جديد اضطراب وعويل المنادى عليها، بدأت تحاول تمزيق الحبال بأسنانها. جرحت معصميها، فجأة ارتمت الأمّ على سكّين وقطعت قيود ابنتها.

هبّت المهداويّة واقفة، اندفعت صوب الصوت المنادي. خرست ألسن النساء. عيون الأمّ لم تفتر عن البكاء. انكمش الرجال كديك منفوشة هلعة، محملقين بعيون يكسوها الوجل والدهشة.

في الغد لم تعد المهداويّة إلى المنزل. مرّ أسبوع لم يظهر فيه لها أثر. صدّق جلّ أهل القرية قصّة علاقتها بالعفريت، وتمّ إغناء الحكاية بشهادات وادّعاءات حول رؤية بعض السكّان للعفريت، ما زاد الأمر غرابة وهيبة. ذاعت الحكاية في كل القرى المجاورة.

تمادي مخيّلات وألسن القرويين لم يوقفه سوى انتشار خبر ظهور المهداويّة. دوّى الخبر كبارود يحترق، أكّده جماعة من الصيّادين. فقد شاهدوا المهداويّة برفقة الطيّب البوهالي يتسلّقان الصخور في اتجاه أحد الكهوف وسط المنحدر الشاهق الارتفاع، المطلّ على البحر.

وبين التصديق والتكذيب، اجتمع رجال القرية. قرّروا ردّ الاعتبار لرجولتهم التي هزمت يوم كان النداء الغريب على المهداويّة يفزعهم وينقص من هيبتهم ووقارهم أمام نسائهم. حملوا الهراوات وقصدوا بيت الطيّب البوهالي، تبعناهم نحن الأطفال. نادوا عليه فلم يجبهم سوى الصدى. كسروا الباب، لم يكن موجودًا. أجمعوا على التوجّه إلى منطقة الكهوف حيث ادّعى البحّارة رؤية الهاربين. نزل السكّان قاصدين الشاطئ. انحدرنا نحن الأطفال نتبعهم والكلاب تسبقنا إلى الجوف الغابوي

الذي كانت المهداويّة تسلكه عند أسفل المنحدر. عرج بعض الشباب جهة اليسار، حيث تمتدّ فجوة جدّ ضيّقة بين صخرتين مرتفعتين يتكسّر الموج على مدخلهما. ارتمى الشجعان منهم في البحر وسبحوا إلى أخدود ضيّق وسط الجبل، ثم شرعوا في تسلّق صعب للجرف باتجاه أحد الكهوف. كان بعض الصيّادين يوجّهونهم بإشارات من قواربهم داخل البحر. وصلوا إلى تجويف صخري كبير، على شكل مغارة، وجدوا داخله فراشًا مهترءًا للطيّب وبعض البقايا من الطعام. كان ذلك آخر أثر للمهداويّة والبوهالي.

تنفّس أهل القرية الصعداء. وتسابق الرجال في عرض متأخّر لفروسيّة مهزومة، يردّدون فيما بينهم في حلقة مفرغة كيف أنّهم تعقّبوا المهداويّة غير آبهين بعفريتها. لكنّهم، وإن كانوا يحاولون إخفاء وطمس آثار رعبهم، غير راضين عن جبنهم، حين كان البوهالي ينادي على المهداويّة، فهم لم يستطيعوا كتم وستر ما أصبح النسوة والأطفال يردّدونه حول مشاهدة الهاربين. أكّدوا أنّه في إحدى الليالي المظلمة غير المقمرة شاهدوا من أعلى الجرف المهداويّة والبوهالي يسبحان في هدوء وسط البحر.

يقترب فصل الصيف من نهايته. أستعدّ مع مما رحمة للعودة إلى مدينة تطوان، وروحي ملآنة فيّاضة بذكرى المهداويّة وروحها.

وقبل أن أصعد إلى الشاحنة التي ستقلّنا إلى المدينة، والشمس تقترب من المغيب، غافلت مما رحمة وتوجّهت إلى الجرف

المنحدر، حيث ألقيت باقة من أغصان نبات الريحان في تلك الهوّة السحيقة على البحر. وأنا أدقّق النظر في تموّجات المياه ولونها الأزرق الغامق المائل إلى السواد، رمقت البوهالي والمهداويّة يشقّان عباب البحر، والجنيّات السبع بألوانهنّ القوس قزحيّة ومآقيهنّ اللامعات الفاتنات، ووجوههنّ المشرقة النيّرة، يحطن بهما وكأنّهنّ حارسات لهما.

وما إن شعرت الجنيّات بوجودي حتّى التفتن نحوي مبتسمات ابتسامات أخّاذة، ملوّحات لي بأكفّهنّ البيضاء ذات الأنامل الناعمة، مناديات عليّ باسمي، نداء أحسست وكأنّ روحي تنتظر صداه بشغف منذ زمان.

العمر يمرّ، الحياة تحترق وتختفي لحظة خلف لحظة، تدعك أوصالنا، تجرحنا، وقد تلملم جراحنا ثم تهدهدها. وأنا جمار حارقة تنطفئ في دمي، تاركة خلفها صوت ورائحة احتراق.

تعود بي ذاكرتي إلى دار طفولتي الكبيرة. يرتسم لي نفق مضيء أتسلّل منه إلى تفاصيل وبدايات زهو أنوثتي. يدفعني إلى تذكّر صباي. صبا، بقدر ما كان فضاء ممتعًا لسعادة طفلة بريئة، قدر ما كان مرتع تساؤلات مثيرة.

أنشر أيّام صباي أمام عيني، كما تنشر مما رحمة حبوب القمح على حصيرة تحت الشمس. تجمع الحبوب، يتطاير الغبار، لكن غبار ذاكرتي يلتصق في مخيّلتي رافضًا الانصياع لرغبتي في إيقاف نزيف التذكّر.

ها أنا أخليك يا ذكرياتي، تنثالين عليّ كما تشائين. سأفتح لك قلبي ليحتضنك، بعد أن كَلَّ عقلي، وأقدّم لك يا صباي عشقًا لم أهده لك من قبل، عشقًا متعبًا ومتعبًا.

توالت الأيّام تنقش نمنماتها، متوّجة زخرفاتها ونقوشها على جسدي، وبدأت الأنوثة ترسم تضاريسها، ليفوح منها أريجي.

كل شيء حولي نما معي. شجرة التين في حديقة ماما رحمة ازداد تفرّعها دون انتظام. أشجار الليمون أزهرت، غزا الشيب شعر سي الأمين باندفاع. زادت بطن من أناديه أبي انتفاخًا. وازداد صمت مما رحمة، وازدادت دعواتها وصلواتها.

همّي يكبر داخلي، وأنا أكبر داخله. تنزاح عنّي غلالة الغموض شيئًا فشيئًا. صدري بدأ ينتفخ منه النهدان، وردفاي قد برزتا بوضوح.

فجر أحد الأيّام، استيقظت على دفء سائل لزج رطب بين فخذي، لمسته بيدي، أشعلت النور، كان دمًا. بانزعاج أيقظت مما رحمة، قالت لي في هدوء:

ـ اليوم تتويج أنوثتك يا ابنتي.

صار شكلي يغري الأولاد والرجال. بدأت كلمات إطراء وغزل تطأ مسامعي. كما عادت لتجتاحني من جديد أوصاف أنّني لقيطة وابنة زنا. أقوال لم أكن أعي معانيها وأوليها اهتمامًا كبيرًا في بداية عمري، ها هي ذي تعود لتهزّني وتؤكّد لي كم أنا مختلفة عن باقي الفتيات.

نعم، لم أدر أنّني مختلفة عن الأخريات إلاّ من هذه الكلمات. كبرت وكبرت بعنف داخلي، فاحتوتني دمّرتني، أشعلتني وألهبت فيَّ رمادًا مشتعلاً.

يوم كنّا أطفالاً، كنّا ككل الأطفال، نلهو، نجري، نفرح، نخادع أهلنا من أجل الخروج والالتحاق بالآخرين للعب.

بدأنا نكبر، وكبر معنا خداعنا، وصارت قلوبنا تعرف الجديد، وأجسادنا تخرج من صمتها لتعانق صخبًا ليس كباقي الصخب.

ننمو وتنمو معنا حماقاتنا، ويعتري الحمق جسدنا، فيعلن خروجه من جنّة الطفولة إلى مرحلة نضج أعضاء كنّا نخالها كباقي الأعضاء، فإذا بها مجلبة لشقاء لم نكن نتخيّل مدى وقعه.

يوم بدأنا نكبر، لم نعد نخدع أقرباءنا للفوز بحصّة لعب، بل للفوز بحصّة حبّ.

أمّا نسرين، إحدى قريناتنا، وبنت عائلة دار الباشا الثريّة، والتي لم تخادع يومًا عائلتها لتلهو معنا، فقد أصبحت تراوغ أبويها لتغبنهما في قصّة حبّ ليست عاديّة مع مصطفى الأحمق.

حين كنّا أطفالاً كان عمره يقارب الخمسين، بشعر أشعث وشوارب بيضاء كثّة تغطّي فمه وتزيد وجهه المثخن بالغضون وقارًا.

كان سكّيرًا، وكنّا نحترمه. ولم نكن نحترم كل سكارى حيّنا. فكثيرًا ما يصبحون ضحايا لهونا. إذ يكفي أن يصير المخمور ثملاً لا يستطيع المواجهة حتى نلتفّ حوله مردّدين أقوال ذمّ واستهزاء واستهجان. أقوال سرعان ما تتحوّل إلى أشعار لها قافية ولها حظّها من ميزان الشعر:

ـ هَوْ بْرَّانْشُو، هَوْ سْكْرَانْ، هَوْ بْرَانْشُو

نتبعه ونحيط به حاملين عصيًا وحجارة، نلكزه بأعواد الخشب، وحين يهدّه التعب، ندور حوله في حلقات رقص وتطبيل، لا نفضّها إلاّ بعد أن يتدخّل أحد كبار السنّ من الرجال. أمّا نساء حيّنا، فكنّ يتلذّذن بالمشهد، كأنّهنّ ينتقمن من أزواجهنّ الذين كثيرًا ما يعودون ثملين بعد إنفاق ما ادّخروه خلال اليوم في احتساء الخمر.

لكن مصطفى لم يكن يفقد اتّزانه حين يسكر. يزداد مرحًا ولطفًا، نتحلّق حوله، حكاياته وسخريته ونصائحه لا تنتهي. كثيرًا ما يختتم جلسته معنا بالغناء وبنوبة من البكاء.

يواصل حياته وحيدًا مع أمّه. امرأة لم تكف عن مواجهة شظف العيش رغم تقوّس ظهرها. تحمل همّ ابنها الوحيد بعناء.

لم تكن حالته تستقرّ، تقلّب في مهن شتّى، من دباغ إلى ميكانيكي إلى مطرب في الأفراح إلى نادل... ثم عاطل عن العمل. عتاب أمّه بسبب عطالته لم يكن يتوقّف.

عادة ما يعود بعد منتصف الليل وعلامات السكر تسبقه إلى

الحيّ، فيجلس على إحدى العتبات تحت نافذة غرفتي بالدار الكبيرة.

من شبّاكي هذا أطلّ على المدينة العتيقة، وطرف من الجزء الجنوبي لعمران المدينة الجديدة يمتدّ تحت بصري إلى جبل غرغيز وبحر مرتيل. مثلما أطلّ على دار الباشا.

بناء فخم من الطراز القديم، بثلاثة طوابق تعلوها قبّة بقرميد أخضر. يقف شامخًا في وجاهة أمام بساطة الدور المحيطة به. بحديقة واسعة تحيط بها أشجار النخيل وتتوسّطها أشجار الصنوبر الباسقة، وشجيرات البرتقال، والليمون والياسمين وعنبر اللّيل، ما ينشر على الدرب رائحة زكيّة تعبق أكثر حين يظلم الليل.

بالحديقة صهريج واسع مرخم، تتوسّطه نافورة من طراز أندلسي، وفي جهتها اليسرى تعلو الدار. بشرفاتها وشبابيكها وغرفها وطوابقها ذوات السقوف العالية وأسوارها المرتفعة المطلّة على دربنا هي أشبه بقصر صغير. قلعة تنتظر أن يعيد لها التاريخ أمجادها. كان للدار منفذان، واحد من ساحة السوق السفلي، بعد أن تعرج إليه من مدخل طويل، وثان يؤدّي إلى دربنا عبر باب صغير من الخلف.

يحكى في حيّنا أنّ الدار بناها باشا حكم مدينة تطوان قديمًا. اختار لها هذا الموقع المرتفع لنقاء هوائه وتأمين أمنه. حيكت حول الدار أقوال غريبة، منها ادّعاء أنّه يوجد تحت القلعة مخبأ سرّي يحتوي على مخزن يتّسع لخزن المؤونة لشهور، وعين ماء جارية. أقوال زادتها حكاية سرطحا غرابة. يحكي لنا بعد مقدّمته

العجيبة عن العلم وضياعه، كيف أنّه في فترة الاستعمار تتبع أثر عقيد من الجيش الإسباني لمدّة ثلاثة أشهر. فغافله في إحدى الليالي غير المقمرة، بعدما خرج ثملاً من أحد مواخير المدينة الذي تديره روصا الكاطلونيّة. انقضّ عليه في الزقاق المؤدّي إلى القصبة، وهي الثكنة التي يرابض بها فيلق من جيش الريكولارس الإسبان، وهناك اغتاله بطعنات من خنجره. ويسترسل في سرد بطولته يؤكّد أنّ عمليّة مقاومة بتلك البسالة لم تكن لتمرّ دون أن تلاحظ من طرف حرّاس العقيد الذين كانوا خلف قائدهم. فهرعوا وراءه، فما كان له إلاّ أن هرب وداهم أحد المنازل وأسرع يقفز فوق السطوح إلى أن رمى بنفسه في حديقة دار الباشا. وهنا تغرورق عيناه بالدموع، ويسرح بهما بعيدًا، ويتشوّك شعر رأسه، ثم يترحّم على أحد أحفاد سلالة القصر الذي قاده عبر مدخل سرّي تحت الصهريج إلى دهليز، ومن هناك إلى الطابق الخفي، ومنه قاده عبر مجرى عين الماء إلى كهف ضيّق وطويل مظلم، بمصباح يضيء له الطريق. وزاد سرطحا أنّه بعد مسيرة يوم كامل داخل النفق وصل إلى جبل يطلّ على مدينة سبتة، حيث بقي متخفّيًا بها إلى أن عاد إلى تطوان بعد الاستقلال.

وقبل أن يسافر بنا سرطحا في نفق آخر من أنفاق سرده الغريب والممتع، ونحن حائرون ما بين تصديقه وتكذيبه، نرحل عنه لنرفع أعيننا إلى هذا البناء الذي نفخر بوجاهته في حيّ أصبح يعجّ بدخلاء أعوزتهم الحياة، وهم يلتمسون سكنًا متواضعًا فرارًا من

مرارة العيش في البادية، قاصدين سرطحا في دكّانه خلال أوقات فراغهم الكثيرة، مستمعين لحكمه وحكاياته التي تنعش أمسياتهم الرتيبة وأرواحهم المتعبة.

وحياة العائلة التي تقطن دار الباشا يلفّها الغموض والسكينة. رغم محاولاتنا، لم نستطع معرفة الكثير عن أفرادها: ابنة جميلة وأخ أكبر وأب موظّف وأم أنيقة. عائلة ثريّة، ذات عراقة، من سلالة العائلات الكبرى للباشا. يتردّد أنّ مكوثها في حيّنا، قربنا نحن، إلاّ حفاظًا على ذلك المنزل الذي لم أدخله قط. بيد أنّ دوافع بقاء العائلة قربنا وعشقها لحيّنا تختلف عن دوافع ابنتها، أو ربما اختلفت في الأيّام الأخيرة.

كانت نسرين قدًّا رشيقًا وملامح ساحرة، كأنّها ورثت الفتنة عن مليحات القصور. تتابع دراستها بمدرسة للبعثة الإسبانيّة بالمدينة. إذا صادف أن التقينا في الشارع وجهًا لوجه تمدّني بنصف ابتسامة تروقني. لكن انشراحي من ابتسامتها يختلف عن انشراح مصطفى الأحمق.

انتصف الليل أطللت من نافذتي أستجدي نسمة رقيقة من هواء منعش يلفع وجهي، فإذا مصطفى، وعلامات الإرهاق بادية عليه، جلس تحت نافذتي، وبدأ يتسلّق بعينيه سور دار الباشا وشبابيكها المزركشة، ونوافذها المزخرفة. رفع رأسه محدّقًا في السماء مخاطبًا:

ـ أرجوك، ارحميني. جودي على مسكين هو بحبّك وله هائم، إذا رآه قيس بكى لحاله، أرجوك نظرة فقط. نظرتك

تجعلني أضمّ العالم تحت إبطي وأرفرف في ملكوت السعادة. ابتسمي ولو لهنيهة. ابتسامتك ترياق دائي.

أشفقت لحال مصطفى، وأطفأت النور لأستكمل الفرجة على ملهاته الموجعة.

ها هو الآخر جنّ. مسكين يا مصطفى. لقّبوك بالأحمق لحماقة أفعالك، وليس لجنونك، وها أنت تجنّ حقًّا.

آه يا حيّنا، ها هي ضحيّة أخرى تنضاف إلى ضحاياك، كأنّك تصرّ على أن لا تهدينا إلاّ المرض والعهر والجنون. وددت أن أنادي عليه:

ـ لا نودّ أن نفقدك يا مصطفى. لا تستسلم للحمق، واجهه بشجاعتك المعهودة، فحتمًا سترهبه وستتعافى.

لكن جنونه مختلف. جنون من نوع آخر. شبح إنسان يتحرّك خلف أحد الشبابيك العالية من دار الباشا، حيث يمدّ المفتون بصره بافتتان. شعر طويل مسدل على وجه امرأة وهي تنظر بحذر كبير إلى الأسفل، وابتسامة مرحّبة تعلو محياها. كان وجه نسرين له ينشرح.

عرتني الدهشة، وسكنني الاستغراب حين أصبح المشهد يتكرّر في الغدّ وفي الليالي الموالية.

أغنى مصطفى جلسته، أصبح يحضر معه آلة عود يعزف على أوتارها نغمات أحزانه وهيامه، ويردّد مقاطع من أغان قديمة تحكي صبابته وعشقه الجامح. صوته الرخيم والشجي يزداد رقّة حين يمدّ آهات شكواه وأنّات معاناته.

أصبحت أشاهد نسرين وهي ترنو إليه، متطلّعة مشدودة، تحاول أن تتوارى وراء ضلفة النافذة خلف ستار شفّاف، في غرفة دون أضواء. لم يكن يشعّ منها سوى ضياؤها على مصطفى. اعتدت هذه الفرجة، وأصبحت أتلهّف للتلصّص عليهما كل ليلة.

قرّرت نسرين أن تنزل إلى نافذة بالطابق الأوّل، حيث أصبحت أقرب إلى مصطفى. وحيث رأيت ما لم أصدّقه، كانت الفتاة تهديه قبلة عبر الهواء قبل أن أعرف من حركاتها وإيماءاتها أنّها تتهيّأ للنزول إليه.

بعد جهد فتحت نسرين الباب الخلفي المفضي إلى دربنا، فارتمى مصطفى بسرعة إلى الداخل. ها أنت دخلت يا مصطفى، ليس هاربًا كما هرب الإسكافي سرطحا، بل غازيًا قلب الأميرة نسرين. فاحملها واهرب بها عبر النفق، قبل أن يفيق أهلها، لتتحقّق حكاية الإسكافي.

تداخلت الأشياء لديّ، كنت أسمع عن قصص حبّ، لكن ما تعوّدت أن أصدّق قصص حبّ جارفة كهاته. قصص ينادي فيها الإنسان شعور غريب جميل، مبهم لا يقاوم.

مع مرور الأيّام، تداولت الألسن أقوالاً مثيرة عن هذه العلاقة الغريبة. تكلّم الناس عن تسلّل العاشق إلى دار الباشا ليلاً. وعن نسرين وهي تسرع بخطواتها خلفه في شاطئ أزلا، يقصدان كوخًا من قصب.

كما تناولت الألسن كلمات مصطفى لها، ومحاولته إقناعها بمبدئه: مبدأ الأخذ والعطاء في الحياة!!

ـ ماذا سيحدث لك لو أنّني مددت يدي إلى جسدك؟ إلى طرف من جسمك؟ لن تخسري شيئًا، سوى أنّك ستشعرين بلذّة عارمة. وماذا سيقع لك؟ فقط ستحسّين بلذّة ورعشة؟ أنا أعطيك وأنت تأخذين، وأنا آخذ وأنت تعطين. لحظة جنون جميل.

تسأله نسرين:

ـ وكيف يكون الجنون جميلاً؟

ـ حينما نمارسه أنا وأنت..

هكذا استرسل معها وهي تستسلم. تستسلم لكيمياء حبّه الغريب، وتزداد تشبّثًا به، مقتنعة بفلسفة الأخذ والعطاء والجنون الجميل، إلى أن استسلمت له كلِّيَّة.

شاع الخبر. علمت عائلتها بالتفاصيل. صعق الأب وهجرت البنت إلى مدينة الدار البيضاء لتعيش مع عمّة ثريّة لها. ولم نر لها أثرًا منذ ذلك الحين.

* * *

أدمن مصطفى المكان نفسه أمام الباب الصغير الخلفي للقصر، كما أدمن الخمر والعربدة. يغنّي ويصرخ ويرقص كطائر مذبوح. يجتمع عليه أبناء الليل، معربدون، سكارى، صعاليك، شمّامو الغراء. أصبح يقضي الليل كلّه متسامرًا معهم تحت شبابيك دار الباشا، إلى أن جزّ أحدهم خدّه بمشرط وكسر آلة العود فوق رأسه.

ماتت أمّه، ماتت فضيلة بعد أن كلّت من نصح ابنها والجري المتعب خلف لقمة العيش في سنّ متأخّر. حملت معها همّ ابنها الوحيد ورحلت. حضور هزيل لبعض أبناء الحي خلف الجنازة. عن بعد كنت وسعيدة وإحدى قريبات الأمّ وثلّة من الأطفال فوق تلّ مرتفع من المقبرة نتابع الموكب. كان بكاء مصطفى نواحًا، حزّ في نفوسنا. شاركناه النحيب. على حافّة التلّ وقفنا نتابع مواراة جثمانها التراب، في قبر حفر على جانب خندق تحت شجرة عالية متشابكة الأغصان، مشهد خلق في نفسي رهبة أسكنتني في دوّامة الحزن لأيّام.

في المقبرة، أحسست أنّنا نمشي فوق قبرنا الذي سنحمل إليه ذات موكب جنائزي. ترحّمت على فضيلة وقرأت بعض السور من القرآن.

وبما أنّ لكل حيّ أجله، والحياة أيّام تتداول بين الناس، فحزن مصطفى على أمّه كان له أجله أيضًا. بعد أيّام انطفأ لهيب جمرة فقدان أمّه. فعاد لمواصلة أيّامه بعبثها وضياعه.

تدخّلت جارته، تحاول نصحه وحثّه على الزواج، تقنعه أنّه في حاجة لزوجة تستره وتأخذ بيده. لكنّه كان يرفض ويقهقه بطريقة لامزة:

ـ لماذا تريدين منّي أن أتزوّج؟

فتفطن المرأة لمغزى كلامه الموحي بالمجون وتنسحب.

يزداد ثمله، وتكثر عربدته ويفقد هيبته.

ـ أنت حقًّا أحمق يا مصطفى. أنت أخرق. خانتك الفتاة ورحلت، وها أنت تخون نفسك ونصيحة أمّك. بل أنت أبله.

أدمن السكر. لم يعد أطفال الحي يحترمونه، أصبح في حالة سكره هدفًا للهوهم يجرون خلفه، يسبّونه ويلكزونه، فينهرهم ويسبّ أمّهاتهم وأمّهات أمّهاتهم. لكنّهم أضحوا يجدون في إيذائه لذّة أكثر ومتعة أكبر.

بإذن من مما زاهية أصبحت أشارك الأطفال الذهاب إلى السينما، خاصّة أيّام الآحاد. كنّا عادة مجموعة من أولاد وبنات الحيّ، يرافقني علي أحيانًا. كانت مما زاهية تؤدّي لنا ثمن التذاكر، حتى يخلو لها الجوّ لاستقبال ضيوف الدار الكبيرة. كان الأولاد حرّاسًا لنا؛ أنا وسعيدة وعائشة وليلى... نجلس على مقربة منهم محتميات بهم. ننبهر بمتعة الصورة. نضحك، نتيه وقد تسيل دموع حارّة من أعيننا.

تماهينا مع أبطال وبطلات أفلام السينما الهنديّة التي استلطفتها أنفسنا حتى انبهرنا بها. انتصرنا معها للخير في صراعه ضدّ الشرّ. نبّهنا البطل والبطلة من مغبّة التغفّل إذا ما حاول شرّير الإيقاع بأحدهما. وصفّقنا لانتصاراتهما، وبكينا معهما مرارة الافتراق.

رغم أنّنا لا نفهم اللّغة الهنديّة، أصبح بعضنا يردّد أغنيات الأفلام عن ظهر قلب. كما أصبحت أذوب عاطفة، وبدأت أستشعر الخفقات الأولى لمعنى الحبّ.

منزل مما رحمة كانت تحيط به من الخلف حديقة مسيّجة بأعواد من القصب، يتوسّطها منزل ذو سقف من القرميد، كان في

ملك إسباني يربّي الخنازير أيّام الاستعمار. تقطنه عائلة احمايدة. أسرة تحيا في فقر مدقع، تسع بنات وابن له حجرة منفردة بجانب العرصة. كثيرًا ما يرافقنا إلى السينما. نحيل أسمر ذو عينين تنمّان عن ذكاء. يستهويه ترديد الأغاني.

يومًا، شدّني صوت غناء حزين، أطللت من السطح، كان ابن احمايدة يواري فأرًا ميتًا التراب، سقط عليه من سقف كوخه المغطّى بألواح من الزنك. كان الصبي يغنّي باللغة الهنديّة مقطع أغنية حزينة، وينتحب. ودون أن أدري، هل يبكي على نفسه أم على الفأر الميت، قاسمته البكاء وأنا لا أعلم هل أبكي عليه أم على نفسي.

كنّا نفضّل قاعة السينما القريبة من حيّنا. ثمن تذاكرها أرخص من ثمن دخول القاعات الأخرى للمدينة. غير أنّه كثيرًا ما تقدّم لنا أفلامًا يتمّ عرضها بطريقة معكوسة. يبدأ عرض الفيلم من نهايته لينتهي إلى البداية، فنحتجّ بالصفير والصياح والضرب على المقاعد.

والأعطاب التقنيّة للعروض لم تكن لتنتهي. وكثيرًا ما تسبّبت في انقطاع بثّ الفيلم قبل نهايته. فيصبح مسير القاعة مضطرًّا لأن يشعل النور ويصعد فوق خشبة القاعة ليحكي لنا عن المشاهد التي حجب عنّا العطب رؤيتها. مشاهد يتفنّن اللاركو في أدائها ومحاكاة أبطالها، إذا كانت تخصّ أفلامًا هنديّة، فيتبنّى دور البطل، ويغنّي باللغة الهنديّة للبطلة، ثم يحاكي البطلة فيغنّي للبطل. يتبادل الضرب مع أفراد وهميين من العصابة. يسقط

ويتمرّغ فوق الخشبة، وفي النهاية يغنّي بصوته الجافّ إيذانًا بانتهاء العرض.

آخر عهدي بهذا النوع من الفرجة يوم رافقنا علي إلى سينما الحي. وقع الخلل وتوقّف بثّ الفيلم. فوقف اللاركو فوق الخشبة ليصفَ للمتفرّجين كيف ستنتهي أحداث الفيلم.

لكنّنا كنّا قد ضقنا ذرعًا بالأعطاب وبالسينما وباللاركو. علا صياح وصفير حادّان. شرع الأطفال يكسرون المقاعد ويتقاذفون ألواحها ويقذفون بها اللاركو. تحوّلت قاعة العرض إلى قاعة للاقتتال. فرّ اللاركو. استمرّت الفوضى لأكثر من ساعة، ولم يوقفها سوى تدخّل المَخَازَنيّة.

زوال يوم جمعة، طلبت منّي مما رحمة أن لا أتأخّر في العودة من المدرسة، وأن أعود مباشرة إلى منزلها. فاجأني وجود مما زاهية وهي تتربّع فوق مترية بفناء الدار، فلم يسبق أن دخلت من قبل منزل سي الأمين.

دعتني مما زاهية إلى الجلوس بينهما:

ـ يجب أن تعلمي أنّني لم أدخل منزل السي الأمين إلاّ بعد ترخيص منه، والرجل الطاهر لم يأذن لي بذلك إلاّ بعد أن علم بمدى أهمِّيَّة الموضوع. وقد اخترت مخاطبتك في هذا البيت تيمّنًا ببركته ونقائه.

باستغراب واندهاش، رحت أحدّق فيها متسائلة عن معنى كلامها. ثم أردفت:

ـ لقد كبرت الآن وعليّ أن أصارحك، وأتكلّم معك بوضوح، فأنت بنت، والبنت مطالبة بالحفاظ على نفسها وكرامتها.

مدّت يدها إلى بيضة في طست فضّيّ اللون على المائدة، حملتها ونقرت عليها بأصابعها. اندلق سائل البيضة على كفّها، تركته ينزلق ببطء بين أصابعها، نظرت نحوي:

ـ سرّ شرف المرأة هو أرهف وأكثر هشاشة من قشرة هذه البيضة التي ثقبتها بنقرة خفيفة من أصبعي.

صَمَتَتْ لحظةً.

ـ كلّ تصرّف غير متّزن يكلّفك ثمنًا غاليًا في حياتك، قد يجعلك تهدرين شرفك، كرامتك، وتخسرين أعظم ما تمتلكه المرأة. وقد يكون مآلك دارًا كالدار الكبيرة، وأنا لا أتمنّى ذلك.

وكأنّها نسيت قولاً مهمًّا، أشارت نحوي بيدها كي أواصل الإصغاء:

ـ شرف المرأة لا يهدى إلاّ لزوجها.

لم تتدخّل مما رحمة، أطرقت برأسها في صمت مباركة أقوال مما زاهية، تاركة لها الفرصة لتنزع عنها حجاب الوقار لأوّل مرّة أمامي.

لم أعلّق، لا كلام عندي، أحنيت رأسي وسكت، محدّقة في شرود. استشعرت خوفًا وثقلاً يجثم على نفسي وضيقًا يجثو على صدري.

بعدما أنهت مما زاهية كلامها، همّت بالانسحاب وهي تؤكّد بلهجة حاسمة:

ـ ما قلته لك اليوم، لا أريد أن أعيد قوله أبدًا.

دبّ في أحاسيسي خوف رهيب، خوف من أن أكسر يومًا قشرة بيضتي ويهرق محّها. تملّكني ذاك الهاجس بحدّة لدرجة

أنّني أصبحت لأيّام أمشي ورجلاي منفرجة عن بعضها مخافة أن يهشّم احتكاك فخذي القشرة.

يوم لقّنتني مما زاهية درس المحافظة على بيضتي تمنّيت أن تتطرّق إلى سرّ حكايتي أنا، وأن تخبرني من هي أمّي، وتعرّفني بمن ولدتني.

أمام عدم بوحها، قرّرت أن أكسر الصمت، أن أصرخ لكن ليس دون صوت كما تعوّدت، ما دامت غلالة الحشمة بيننا قد أزيحت. في انتفاضة غير متوقّعة منّي توجهت نحو مما زاهية أسألها بحدّة:

ـ من هي المرأة التي ولدتني؟

أحسست أن سؤالي باغتها، وهي تغطّي سحنتها بمسحة صرامة لتداري ارتباكها، أجابتني:

ـ لا يهمّ من ولدتك، الأجدر بك أن تتذكّري من قامت بتربيتك.

نهضت واقفة وأخذت تتمشّى أمامنا، لتخفي انفعالها، ثم أردفت:

ـ أنا لا أعرف من ولدتك، والله شاهد على ما أقول. ففي إحدى الليالي طرق باب بيتي أحد المشرّدين يتّخذ من المقبرة مأوى، أخبرني أنّه عثر على رضيع مرمي بين القبور. لم أعر كلامه في البداية اهتمامًا، لكنّه حدجني بنظرة قويّة قال:

ـ لم لا تكفّرين عن ذنوبك بتربيته؟

توجّهت إلى المقبرة، وجدت رضيعًا ملفوفًا في قماش أبيض يبكي، وكلاب ضالّة تحوم حوله. كنت أنت، حملتك إلى بيتي، ومن يومها عاهدت الله على تربيتك تربية لائقة.

وبصوت أليم:

ـ رغم كوني لم ألدك، تأكّدي أنّني أحببتك أكثر من أيّ بنت كنت سألدها، ولا تنسي أنّ الله قد حباك برعاية وحبّ جارينا، شخصان فاضلان هما أكثر منّي حرصًا على تربيتك تربية حسنة.

لست أدري، لِمَ لَمْ تثرني الحكاية. تخيّلتها مشهدًا سينمائيًّا. أحسست كأنّي أعرف نهايتها مسبقًا، عادة تأتي المصائب والفواجع دون علم مسبق بها. أمّا مصيبتي التي سمعتها الآن فقد كنت أتوقّعها، وإن كانت تفاصيل أحداثها مختلفة عن ما تصوّرته. تذكّرت المهداويّة، هي على الأقل كانت تعرف من ولدتها، وتعيش معها. انسحبت في صمت، صعدت سطح المنزل، تمددت على ظهري، رحت أحدّق في السماء محلّقة ومشاركة الخطاطيف رقصاتها، ولحن جنائزي مروّع يسافر بي في ظلماتي الداخليّة.

كنت أساعد مما رحمة في إعداد مائدة العشاء حين علا طرق على باب الدار. ما إن فتحه سي الأمين حتى بادره الطارق:

ـ أعد إليّ ابنتي، سلّمني ابنتي.

كان صوته مسموعًا، ارتميت بسرعة نحو الباب، وجدت شيخًا نحيلاً يرتجف بأعين دامعة:

ـ أرجوكم، أتوسّل إليكم سلّموني ابنتي.

فزعت، حبّ استطلاع قويّ. تكهربت ذاتي. اعتراني رعب مبهم، سرت على إثره ارتعاشة في كل أطرافي. ظننت الرجل يقصدني أنا. بجزع ولهفة تقدّمت نحوه وسألته:

ـ من هي ابنتك؟

أجابني بصوت خافت:

ـ ابنتي نعيمة.

تساءلت:

ـ أيكون اسمي نعيمة؟

دعاه سي الأمين للدخول. عرفنا من كلامه أنّ ابنته غادرت عائلتها منذ شهرين، وأنّ شخصًا أخبره بوجودها في حيّنا بمنزل ذي باب بنّيّة بعتبته درجتين.

عندها خاب ظنّي وهدأ روعي. وعرفت أنّني لست نعيمة.

تطلّع نحوي سي الأمين في فضول، وطلب منّي أن أدلّ الرجل على منزل مما الزاهية علّها ترشده. رافقت الأب. بعد تخمين أكّدت له مما زاهية أنّ ابنته توجد بمنزل الضُّب، كهل يفتح بيته مرتعًا للعربدة والتصعلك، وملاذًا يعجّ بمتشردّات لا مأوى لهنّ يمتهنّ الدعارة.

بعد طرق خفيف لباب ذي لون بني فتح الضبّ. آثار رطوبة لزجة تغطّي الجدران. رائحة عفونة ممزوجة بريحة خمر تزكم الأنفاس.

استفسرته مما الزاهية عن بنت العجوز. أبدى إنكاره. بكى الرجل أمامه متوسلاً إليه تسليمه ابنته. أصرّت مما زاهية في إلحاح على ضرورة إخراج البنت إلى أبيها مهدّدة الضبّ بتعكير جوّ المودّة والاحترام بينهما إن هو رفض. أمام إلحاحها نادى على نعيمة.

خرجت البنت مرفوقة بفتاة أخرى. طفلتان على أبواب اليفاعة، زيّنتا وجهيهما بخليط من مساحيق ملوّنة، ترتديان ملابس ضيّقة تبرز جسديهما بشكل مفضوح. طريقة مشيتهما تدلّ على أنّهما لم تتعوّدا بعد على السير بحذاء الكعب العالي.

كانتا تنظران إلينا في برود وسذاجة بدويّة، ممّا يجعلهما دون سبب ثاغرتي الفم في اندهاش دائم.

خرجتا دون اكتراث بنا، انطلق الأب العجوز خلفهما. حدجتهما مما زاهية بازدراء. أرادت توبيخهما، لكنّها حبست كلامها في حلقها، وكأنّها استشعرت فوات الأوان. فهي تعلم أنّهما قد أقدمتا على الخطوة الأولى، ومن تقدم على الخطوة الأولى بحيّنا كم تصعب عليها العودة. فالعالم الجديد بأشخاصه ونزواته وبلياته يحطّم كل إرادة للرجوع والتوبة.

هبطنا الزقاق إلى ساحة السوق السفلي، وما إن ولّينا ظهورنا وهممنا بالرجوع حتى اندفعت البنتان تجريان هاربتين في اتجاه ساحة الفدّان، والأب الذي لا يقدر على الركض يتوسّل إليهما أن يرجعا.

انفجرت مما زاهية تلعن الضبّ:

ـ ابن العاهرة، الكلب، أرغمهما بطريقته على العودة إليه.

شرع الشيخ يبكي بحرقة. لا أستطيع أن أقدّم له أيّة مساعدة. ظننت أنّ مما زاهية قادرة على ردع الضبّ. قلت لها:

ـ لم لا ترغميه على أن يعيد للرجل ابنته.

أجابتني وهي تواصل المشي:

ـ الضبّ قوّاد غدّار، كما أنّهما راغبتان في العودة إليه.

عدنا إلى المنزل، أصعد كل درجة من زقاقنا في ثقل زائد.

حزّ في نفسي مشهد الأب وهو ينتحب، تمنّيت لو كان لديّ أب. حسدت ابنته وكرهتها. تذكّرت حالتي، أسئلة حارقة عادت توخزني:

ـ ترى من يكون أبي؟

ـ ما اسمي؟

تساءلت كيف تهرب الفتاة من أبيها وتلتجئ إلى الضبّ. شملني حنق خانق أبعد النوم عنّي طيلة تلك الليلة.

لم تكن مرّت أيّام كثيرة على تلك الحادثة، حين تفجّر غيظي وعاد حنقي ليخنقني من جديد ذات ليلة أخرى. علا صوت استغاثة حادّة مبحوحة غير واضحة عند باب منزل سي الأمين، ثم انهالت أيادي تقرعه بقوّة. صرخات غريبة مخنوقة تمزّق سكينة الليل وتمزّق أحشائي. قمت واثبة من مضجعي. خرج سي الأمين ومما رحمة من غرفة نومهما مرعوبين، وهما يردّدان بعض التعاويذ. كان الباب يهتزّ لشدّة الطرق. وقبل أن تحاول مما رحمة منع زوجها من فتح الباب ارتمى سي الأمين في شجاعة على عكازه وتوجه جهة الباب. انطلقت بسرعة نحو المطبخ، حملت سكّينًا وأخفيته بين ملابسي استعدادًا لما قد يحدث، وحذرًا من الطارق المجهول. ما إن فتح سي الأمين الباب حتى هرولت امرأة عارية الجسد، وهي تندفع نحو الداخل. في جزع ردّدت مما رحمة البسملة. سي الأمين، بين الهلع والاضطراب ومحاولة غضّ البصر، استعاذ بالله.

كانت المرأة ترتعد، وهي لا تدري على أيّ عضو من جسمها تضع يدها لتخفيه عن أنظارنا.

وأنا أحاول تهدئة روعي، وتهييء نفسي لتقبّل ما أرى، لاحت

لي كمدات تختلف وتختلط ألوانها بين أحمر وأخضر داكن وأسود، تغطّي معظم جسد المرأة. أشكال رسوم تتقاطع مع بعضها في زخرفة متداخلة متوّجة بدماء نازفة من بين شفتي المرأة ومن أنفها.

تناولت مما رحمة لحافًا لتخفي به جسد المرأة العاري، غمغم سي الأمين بصوت مرتجف:

ـ لا حول ولا قوّة إلا بالله، ما بك يا ابنتي؟!!

لم تكن المرأة تملك قدرة على الكلام. من عينيها يتفجّر بريق ذعر. حاولت تهدئة رعبها، ناولتها كأس ماء. أدخلتها غرفتي، وأحضرت لها لباسًا تستتر به نفسها.

بدأت أسألها لأعرف ما بها. بإشارات متتابعة من يديها وصرخات مكبوتة مخنوقة، عرفت أن المرأة خرساء!

طُرق باب الدار من جديد، بدأ قرعًا خفيفًا، ثم سرعان ما اشتدّ. في هلع وقفت مع سي الأمين ومما رحمة خلف الباب نستطلع الطارق. من حركاتنا واضطرابنا عرفت المرأة أنّ الأمر يعنيها. ارتمت على رجلي سي الأمين تقبّلهما. بإشارات من يديها حول عنقها فهمنا أنّها تتوسل إلينا أن لا نفتح الباب، لأنّ الطارق يقصدها ليقتلها.

أفجعتني حالتها. من سيكون خلف امرأة خرساء هاربة عارية؟

بشجاعة غير مسبوقة قبضت على السكين. جحافل الخوف

والغضب تشقّ شراييني، فتنفجر كل مكامن الصبر لديّ. ركضت إلى نافذة تطلّ على الباب.

شخص لا يحمل على جسده إلاّ تبّانًا، وعليه علامات سكر بيّن. يترنّح قرب عتبة الدار، وهو يمسك حزامًا جلديًا سميكًا في يد ومدية في الأخرى. لم يكن سوى احْمِيدُو زَرْمِيطَا. رفع عينيه نحوي مخاطبًا:

ـ سي الأمين، أخرج تلك القحبة الخرساء.

حاملاً عصاه وأوصاله ترتعش، وشعيرات لحيته تهتزّ فوق ذقنه النحيل، فتح سي الأمين الباب على مصراعيه:

ـ ماذا تريد يا زَرْمِيطَا؟

بلخبطة في الكلام تنمّ عن سكر مفرط أجابه:

ـ سي الأمين، أخرج تلك القحبة حالاً، وإلاّ دخلت وأخرجتها بالقوّة.

لم يطل انتظاري لردّ سي الأمين:

ـ أمثالك لن يطؤوا شبرًا من عتبة داري وأنا على قيد الحياة.

داهمني فرح غامر. شجاعة سي الأمين ومواجهته لهذا السافل بهذه الجرأة ولّدت لديّ شعلة قوّة جديدة.

حتى أنت يا زرميطا، حتى أنت أيّها الفاسق، أنت الذي دخلت حيّنا والقمل تجهز على جسمك، ليتّخذ منك من سبقوك في الصعلكة والمبيت بين القبور ومداخل الدروب مطيّة.

حتى عندما كنت تحمل الصفائح الخشبيّة المحملة بعجين الخبز من منازل الحيّ لطهيه في الفرن، كانت رائحة عهرك تزكم أنفاس من تدقّ أبوابهم.

حتى أنت الذي شيّدت فجأة وهم رجولتك على أنقاض ما تبقّى منك وما تركه منك أوغاد سبقوك إلى الصعلكة. ها أنت تحتفي بفحولتك المعطوبة المهترئة على جسد هذه الخرساء المغلوبة المقهورة.

علّقت مما رحمة في انفعال:

اللِّي غْلْبُوهْ الرْجَالْ فَالسُّوقْ يْرْجَعْ للمْرَاة فَالدَّارْ.

لكن زرميطا أذلّ من أن يغلبه الرجال، فهو لم يهزم إلاّ من طرف فجّار.

أي زرميطا، لم تكلّف نفسك عناء ستر عورات خرساء، قمت بتعذيبها؟. لأنّها عاهرة كما تدّعي؟ ولم تكلّف نفسك عناء ستر جسدك. ألكونك تشهد على نفسك بأنّك أنت داعر أيضًا؟ أم أنّك تريد أن تظهر لنا صور الأفاعي التي وشمت بها صدرك وذراعيك؟ محاولاً إيهامنا بشطارتك. لكن، تأكّد يا زرميطا، ما أنت بأفعى. إن أنت إلاّ سحلية موشومة بعبور العابرين لجوفك الموبوء.

أنا الآن أخرج من ثنايا لباسي سكّينًا لم أجرؤ يومًا أن أستخدمه سلاحًا. لم أستعمله إلاّ لقطع الخضر واللحم. لكن تمزيق ما فضح من لحمك يا زرميطا هو عليّ الآن أسهل وألين

من قطع البطاطس، أو فصل لحم مفروم. ويدي الآن تقف موقف المنفّذ المنتظر لأوامر لا تراجع عنها.

ها أنت تهين هذا الشيخ وتحاول أن تهدم ما تبقّى لديّ من قلاع الأمان. لأنّ الخرساء احتمت بمنزله الآمن. ها أنت تشتمه بلسانك الشاهد على إثمك. وها أنت تتجرّأ وتمدّ يدك لتزيحه بعنف عن باب داره. يدك التي لم تكن تستعملها إلاّ لحمل الأثقال فوق رأسك ولمدّها أمامك في استسلام مريع، أنت أدرى بأحواله.

ماذا تنتظر منّي يا سليل المسخ؟ ويدي الآن حاملة للسكّين، تقف موقف العبد المأمور لتنفيذ أوامر آتية من عمق السماء. فخذ يا زرميطا، كل ما سينزل عليك الآن لن يعوّض رجفة شعرة لسي الأمين، ولا لحظة من لحظات تعذيب هاته الخرساء القابع خرسها في دمي.

وقبل أن تندفع يدي بالخنجر مستهدفة صدر زرميطا، وقبل أن يتمكّن من الالتفاف خلفه، كانت عصى قويّة تقصم ظهره بينما يحاول رفع يده الحاملة للخنجر. فقد باغتته مما زاهية بضربات خاطفة قاصمة فوق كتفيه وساعديه ورجليه لتشلّه عن الحركة، ولتكبّل كل طاقة له يمكن أن يواجه بها. فلم يكن ردّه إلاّ شتمًا، ليتحوّل إلى توسّل حين لم يعد قادرًا على تحمل الضربات:

العَارْ عْلِيكْ أَللَّا زَاهْيَةَ، أَنَا لَمْ أَقْصِدْ. . .

لم توقف مما زاهية هجومها إلاّ حين أصبح زرميطا لا يقوى

على الوقوف. هبط درجات الزقاق يزحف على يديه ورجليه وهو يئنّ.

تصرّف مما زاهية وشجاعة سي الأمين ألهماني قوّة أكبر لنحت خطوات فتاة جبلت مرغمة على تحمّل فظاعة وفداحة الانتماء إلى الأنوثة في حيّنا.

فظاعة تراءت لي أكثر يوم كانت امرأة قرويّة تُعذَّبُ في صمت على يد ازْبَعْ كِيلُو تحت نافذة غرفتي، والصبح صبح عيد.

* * *

ضياء الفجر يطرق الأبواب، وإن كانت الظلمة لا تزال قابضة على الحيّ. تعوّدت أن أستفيق في مثل هذا الوقت على تهليلات المؤذّن التي تسبق آذان الفجر. لكن أذني اليوم التقطت أصواتًا غير مألوفة. نبرات زاعقة مرفوقة بنشيج امرأة، وسباب بصوت خشن:

ـ ألا تخجلين؟ قرويّة وتمتهنين الدعارة؟ ألا تستحيين؟

كلمات ساقطة فاحشة، ترافقها زخّات من اللّطم والرفس، وصرخات امرأة بلكنة بدويّة تفصح عن انتمائها إلى إحدى المناطق القرويّة المحيطة بالمدينة.

يعاود الصوت المبحوح شتمها:

ـ يا قليلة الحياء والدين... يا الـ...

بجسد يرجف، أطللت من النافذة. كان ربع كيلو واقفًا يتمايل حول امرأة تبكي وهي منبطحة أرضًا.

تتلاطم من جديد صفعات يديه وركلات رجليه على جسدها. تستلطفه، تستعطفه:

ـ ها أنا، اضربني، افعل بي ما شئت. لكن، أرجوك دع سلّة البيض سليمة، فهي كل ما سأحمله غدًا لأبنائي في القرية.

يدفعها السكّير بعنف، يحاول أن ينزعها سلّة البيض، تتوسّل إليه:

ـ غدًا يوم عيد. لم أشتر لأولادي لا حلويات ولا ألبسة. لم أشتر سوى هذا البيض. لا تناولني أجرتي التي وعدتني بها. لكن لا تكسر البيض. أقبّل تراب رجليك...

لكنّه لم يتوقّف، انتفض في تبجّح:

ـ أنا ارْبَعْ كِيلُو لا أتراجع عن كلامي، فسلّمي لي السلّة وإلاّ مزقت وجهك.

كجرد كان يقضي أيّامه في جحر لا كوّة له، في درب ضيّق خلف منزل سي الأمين. يعود كل مساء صاعدًا سلاليم الزقاق والسكر تعتعه بعد قضاء يومه في ترويج قنّينات الخمر المهرّبة من مدينة سبتة على يد اهْبِيشَةَ الميرِيكَانُو. فاربع كيلو ليس سوى أجير مسخّر عند هذا الأخير الذي يحلو له كثيرًا أن يصفعه. كان يقدّم له يوميًّا قنّينة خمر ثمنًا لخدماته.

أطفال الحيّ ما عادوا يأبهون به، ولا يرغبون في إيذائه. لا يهابونه ما دام يعود من فرط سكره غير قادر على نش ذبابة.

لقّبوه اربع كيلو لنحافته المفرطة، ولضآلة حجم جسده. كنت أتساءل أين تذهب كمِّيَّة الخمر التي يسكبها يوميًّا في جوفه؟

سرطحا الذي كان يهاب كل شطّار حيّنا، لا يستعرض قوّته إلاّ على اربع كيلو، وكثيرًا ما كان يستفزّه حين يلتقي به وهو سكران:

ـ أيّها القميء، قامتك توازي قامة قنّينة خمر. ابتعد عن طريقي وإلاّ أدّبتك، أنت لا تقدر حتى على. . .

لكنّه في ذاك الفجر كان قادرًا على ترويع وتعذيب تلك القرويّة. يصفعها، يرفسها بقوّة. لم تكن تدافع عن نفسها. تكتفي بضم سلّة البيض إلى صدرها وتتكوّم عليها. يضغط على عنقها بعنف، ثم يخطف منها السلّة ويفتح مطوى مهدّدًا:

ـ إن اقتربت منّي، سأشطب وجهك.

شرع يقذف بالبيضات على الحائط، يرمي الواحدة تلو الأخرى، وهو يصرخ في هستريا ويسبّ الحياة والميركانو بكلام فاحش.

عشرات أمحاح البيض تندلق فوق الحائط. تحاول المرأة أن تمنعه، يهدّدها بمطواه في حركة بهلوانيّة. جنونه يدفعه إلى أن يرمي بكل البيض الموجود في السلّة. كأنّه يرسم بأمحائها المنزلقة لوحة لخبثه الأزليّ ولضعف هذه المرأة وضعفي أنا التي أتمنّى أن لا يندلق مح بيضتي على يد خبيث من أمثاله.

لم تكفّ القرويّة عن العويل، بنبرات ممزوجة بالبكاء شرعت ترثي لحالها وبيضها، ثم انطلقت تسبّ:

ـ لعنة الله عليك أيّها الداعر، ابن الحرام، ولد القحبة، ربع رجل. لم تترك لي ما أقدّمه لأبنائي صباح يوم العيد. . .

صبيحة العيد هيّأت مائدة الفطور. وضعت فوقها كعكًا كنت أعددته بدقيق وبيض وسكّر. أحسست أنّني فاقدة الشهيّة، رائحة الكعك وصور أمحاح البيض وهي تندلق تصيبني بالغثيان. خياشيمي ممتلئة برائحة بيض فاسد نتن. تولّدت لديّ كراهية بغيضة مزمنة للبيض ورائحته، وشعور بالقرف والقلق عند اقتراب حلول العيد.

لست وحدي التي أصبحت أتخوّف من اقتراب أيّام العيد، حتى رَقُوشَةْ جارتنا تتطيّر من إطلالة هلاله. رهابها من مقدم العيد تملّكها منذ أخبرها الابن الصغير بأنّ الجيران قد اشتروا ملابس العيد لأطفالهم.

فزوجها الذي رحل إلى إسبانيا باحثًا عن العمل، لم يظهر له من أثر. خلّف وراءه رقوشة وأربعة أطفال يكبرون وتكبر متطلّباتهم.

هَلَّ هلال العيد، تطلّع الأطفال بلهفة كل صغير إلى أمّه، لكي تشتري لهم حاجياتهم الجديدة. لكنّ الجديد في هذا العيد لم يكونوا عرفوه من قبل ولا ليعرفوه من بعد.

معمل الزرابي الذي كانت تشتغل به رقوشة أغلق أبوابه منذ شهور، ولم يبق لها من الدراهم القليلة التي وفّرتها إلاّ ما تطعم به أطفالها لأيّام معدودات. والعيد على الأبواب.

لبست ما لم تلبسه من قبل، لباس بدّل من هيئتها وشكلها. جلباب بلون أسود ولثام أخفى معظم وجهها، فلم يعد تظهر منه سوى عينين مكحولتين. انتعلت حذاء الكعب العالي، يساعدها

على التهادي والاختيال في مشيتها. كل ذلك كان استعدادًا لاستقبال العيد. استعداد جعلها تتنكّر في هيئة لم تعرف بها من قبل، لتصبح ضيفة من ضيفات الدار الكبيرة، رغم أنّ منزلها لا يبعد عنها إلاّ بدقائق مشي.

أصبح من الصعب التعرّف إلى رقوشة حين ترتدي حلّتها الجديدة. حلّة استقبال العيد الجديد والعمل الجديد!. غرابة لباسها جعلت التعرّف إليها صعبًا، حتى على أطفالها، وهي تمرّ بالقرب منهم. عندما تنتهي من خدمة الضيوف، عادة قبل أن يشتدّ الظلام، تلبس ملابسها المعتادة وتتسلّل من الباب الخلفي للدار الكبيرة، لتعود إلى أبنائها.

بعض المهتمّين والفضوليين من سكّان حيّنا حاولوا مرارًا التقرّب من الضيفة الجديدة التي تثير فيهم حلم إطلاق لهاثهم. لكنّها كانت تتبرّم منهم وتصدّهم في غير مبالاة بخشونة مغلّفة بلباقة.

كانت تقوم بعرض خدماتها بعيدًا عن ساحة السوق السفلي. وكما هو الحال مع كل سلعة جديدة طريّة، لم يكن زمن العرض يطول. إذ ما إن تبدأ في استخدام وسائل وأسلحة اقتناص الزبائن حتى تجد مقتنيًا.

مشيتها الغنج، وبريق الدلال المفتعل في عينيها، كفيلان بأن يحرّكا لدى أحد المارّة الذي تختاره من خارج حيّنا، ما يخلق لديه لهفة ورغبة الاستضافة. فتتقدّم أمامه وهو يتبعها عن بعد إلى الدار الكبيرة بعدما يتّفقان على ثمن الخدمة.

حلّ العيد. وفي اليوم الموالي وضعت راقوشة منديلاً على رأسها وتلحّفت جلبابًا جديدًا واصطحبت معها أبناءها الصغار ببدلات لائقة للاحتفال، ثم خرجت لزيارة الجيران والأقارب، لتقدّم لهم تهانيها ومتمنّياتها بحلول العيد، في احتشام ووقار، معبّرة في نفسها عن امتنانها وشكرها لمما زاهية وضيفات الدار الكبيرة، لكونهنّ كتمن سرّها عن أهل الحيّ، وحافظن عليه. سرّها الذي تدثّرت بأسبابه قهرًا.

* * *

أسرار الدار الكبيرة لم تكن لتمرّ دائمًا دون أن تنكشف. فكل الحاضرين فوجئوا باندلاع عراك دام بين الشاطو وابنه. بعدما ضبط الابن أباه وهو يتناوب معه على الضيافة بالدار الكبيرة.

التقيا وجهًا لوجه. الابن متسلّلاً خلف إحدى المضيفات إلى إحدى غرف الدار والأب لم يغادرها بعد. اللقاء كان فرصة حتى لا يواصل الأب وابنه تبادل اللوم والتعنيف بسبب تبذير مدخولهما اليومي الهزيل دون دليل. فالأب ما فتئ يشكو لزوجته ابنهما الذي لا يوفّر من مدخوله ولو درهمًا. والابن لم يكن يكفّ عن عتاب وتوبيخ والده الذي يهجر بيته ويترك أولاده دون ما يسدّون به رمقهم.

لحظة لقائهما، لم تدع لهما فرصة أخرى للبحث عن ظرف موات للانقضاض على تلابيب بعضهما. ولينخرطا في عراك بالأيادي وتراكل بالأرجل. تدخّلت مما زاهية، أبعدتهما بعنف

خارج الدار. أنا وسعيدة نداري ضحكاتنا التي تكاد تزهق من أفواهنا.

علا صراخهما أمام المارّة الذين تجمهروا من حولهما. فيما وجدها سرطحا فرصة ذهبيّة للتدخّل وإبداء رأيه وحكمه. صار بعض المتحلّقين حول الأب وابنه يحاولون أن يضفوا على أنفسهم مظهر المتّقين الواعظين الناصحين. الأب يشتم في غضب:

ـ ولد الحرام، عشرين سنة وهو عاطل عن العمل، وبعدما وجد شغلاً أصبح يصرف مدخوله في المواخير.

قبل أن يحاول الابن الدفاع عن نفسه كان الشيوخ والكهول المتجمهرون يحدجونه بتأفّف، متأسّفين ولاعنين هذا الزمان الذي كثر فيه الفساد وعقوق الوالدين. وهم يتهيّؤون للانصراف مقتنعين بحكمهم، يعقب الابن في صراخ:

ـ هذا أب فاسق، أولاده يتضوّرون جوعًا وهو يعاشر العاهرات.

يحملق الحاضرون في حيرة من أمرهم. من يصدّقون؟

إذا كانت بعض أسرار الدار الكبيرة قد افتضحت، فإنّ أهل حارتنا يتمنّون أن لا تسبر أغوارها وأغوار حياتهم أكثر، حتى لا ينفضح ما جاهدوا في إخفائه وستره.

وأسرارنا تبدأ أسرارًا، حقائق يكتنفها الغموض. وما أن ندرك ونعرف بواطنها حتى يجلو عنها جلالها وهيبتها، وينجلي غموضها، نتعوّد عليها فتصبح مألوفة لدينا رغم بشاعتها، نجترّها في صمت رغم مرارتها.

وسكّان حيّنا مهووسون بستر أسرارهم وكشف أسرار جيرانهم. فما إن يطّلعوا على سرّ غيرهم ويدركوا بواطنه حتى يغوصوا من جديد في الحفر عن أسرار أخرى تخصّ جيرانهم لفضح خباياها ونشرها، لاهين بهذا البحث المحموم.

وأنا لم أعد أقوى على حفظ أسراري ولا أسرار حارتنا. سأبوح، سأشرع في الحكي وأنا متيقّنة أنّه لم ولن ينتهي. سرد لامتناه. فالأسرار بحيّنا تتوالد بوتيرة متتالية هندسيّة، تتناسل فيما بينها لتولد أسرارًا أخرى.

ها أنا أحاول أن أعّريها وأن أشهر بها لعلّي أرتاح، ولعلّ أهل

حارتنا يدركون مدى بشاعتها. أسرارنا كوابيس مرعبة مفزعة. كوابيس لا تنفكّ تغزوني في سرير حلمي ويقظتي فتؤرقني وتقضّ مضجعي. ولا سبيل لديّ غير أن أفشيها وأحكيها لك أيّها الفجر، علّني أجد لديك بلسمًا لجراحي ودائي. فالفجر الذي كان يخرس شهرزاد عن متابعة حكايات ألف ليلة وليلة، سيكون لحظة انطلاقي.

هكذا علّمتني، وهذا ما لقّنتني مما رحمة:

ـ إذا ما راودك كابوس يا ابنتي وأرّقك وقضّ مضجعك، انهضي في الفجر من رقدتك، ابسطي يديك إلى السماء وادهنيها بريق من فمك وانطلقي في البوح.

احكي للفجر عن كل التفاصيل، عن كل الأسرار، ولا تنسي أن تسردي عليه متمنّياتك، فحتمًا سيسمعك، وسيصفي نفسك من كدرها.

فوق سطح منزل سي الأمين وتهليلات الفجر ترتفع في سماء المدينة من صوت عذب يدغدغ شغاف قلبي قبل مسامعي، ويعطّر سراديب وأغوار نفسي، ها أنا أقف ويدي ممدودة إلى السماء لأحكي للفجر أسراري وكوابيسي وأحلامي والمستور من وجع أهل حيّنا. حيّ تمتدّ خباياه وفواجعه ـ كما يقول الفقيه احنانة ـ من سكون تخوم صحاريه إلى صدى فرقعة دون دوّي لأمواج محيطاته.

ـ سرّك أسيرك، كشفه يأسرك.

كلام ما فتئ الإسكافيّ يقذف به أمامي. فأعقب عليه:

ـ أنا أسيرة سرّي، إن لم أبح به خسئت.

لكن من أين أبدأ؟ وأسرار فواجعنا تتهاطل عليّ وعلى حيّنا وابلاً من المطر. أخاف أن أثقل مسامعك أيّها الفجر.

فسرّي تعلمه، وسرّ الدار الكبيرة تعرفه. وفضح أسرار وفواجع حارتنا سرد متعب أيّها الفجر. سأختصر، وسأقتطف لك الألطف منه.

* نادية، الأرملة التي لم تجد ما تشتري به حليبًا لطفلها الرضيع، فوضعت طلبًا في الدار الكبيرة في انتظار مكان شاغر.

* زينب العمياء التي تتزيّن، تطلق سالفها وتعرّي ظهرها، وتنزل إلى الشارع الكبير مرفوقة بطفلتها لعلّها تجد من تلبّي نزوته مقابل أن يؤدّي لها ثمن ما تشتري به دواء لأخيها المعتوه.

* الزهرة، وادّعاؤها أنّها حامل، وهي التي جفّ ينبوع زمانها من زمان، تحزم رزمة كبيرة حول بطنها موهمة جاراتها، وهنّ عارفات بسرّها، بأنّها متعبة بحملها، فتدعو لها الجارات بالفرج القريب، ثمّ يخبرن بناتهنّ أنّ خديجة ابنة الزهرة هي التي على وشك الوضع من حمل سفاح، وسنّها لم تتعدّ ثلاثة عشرة سنة.

عمّن أحكي أيّها الفجر، عن:

* ضيفات الدار الكبيرة المريضات بأمراض فتّاكة لا يعالجنها، فتفتك بهنّ بعد أن تكون قد وجدت مراتع أخصب لدى زبائنهنّ.

* جارنا الذي يدفع بناته إلى انتشال جيوب المارّة وانتشال لهاثهم ولا يسمح لهنّ بالدخول إلى المنزل للمبيت إلاّ بعد أن ينتشل منهنّ ما نشلنه.

* أولئك الذين يضبطون جائعًا يسرق خبزة بساحة السوق السفلي فيهشّمون أضلاعه ثم يتوجّهون للبحث عمّا يسرقونه.

* هؤلاء الذين يتحدّثون عن المحظور من التداول بحيّنا. يهمسون بينهم بصوت خافت عن أوجاعهم وأوجاع حاراتهم، عن آمالهم وآلامهم. يهمسون لدرجة عدم سماع بعضهم بعضًا، حتى لا تتمكّن الحيطان من ضبط فلتات لسانهم وسبر نواياهم.

* الذين لم يكلّوا من نهب عرق بسطاء وبسيطات حارتنا، وحين تصيبهم التخمة ممّا نهبوه، أيّها الفجر، يتجشّؤون بعيدًا عن أحيائنا عن مدينتنا وعن وطننا.

تعبت أيّها الفجر ولم أحك سوى شذرات. ألم أقل لك إنّ أسرارنا متعبة لي ولك. ولكن رجاء، صبرًا لأبوح لك بسرّ آخر يجثم على نفسي:

* سرّ أولئك الذين ادّعوا أنّهم قادرون على شفاء أهل حارتنا من آلام أسرارهم، فاغتنوا بأموال هؤلاء المهووسين بالخوف من انكشاف أسرارهم، وغادروا الحيّ.

مدد. . . حتى أقدر على الحكي. مدد. . . حتى أستطيع سماع ما أودّ حكيه. مدد لحاملي تلك الأسرار. مدد لسامعيها. مدد يا الله، المدد يا من ليس لنا سواه. مدد لحيّنا، مدد لمدينتنا. مدد

لكل هؤلاء الباسطين والباسطات أكفّهم في هذا الفجر، طالبين أن تمدّهم بسرّ يشفيهم من وجع أسرارهم. مدد... يا عالم الأسرار.

* * *

المدد	المددااااااااد	يا	سر	الأسرار
المدد	المداااااااااد	يا	نور	الأنوار
المدد	المداااااااااد	يا	خير	الأخيار

تراتيل وأذكار تهزّ النساء الحاضرات، فتنداح على سماعها أرواح وأجساد الواقفات في صفّ منتظم. يهززن رؤوسهنّ وأجسادهنّ بشكل موقع في تناغم مع الأذكار وترانيم الآلات الموسيقيّة المرافقة لها، وهنّ خاشعات في روق منتشيات أمام فرقة نسائيّة تقيم حلقة ذكر صوفيّة. وأنا أقف خلفهنّ، أشاركهنّ طربهنّ وجذبتهن ململمة أسراري، مغمضة العينين، خاشعة ماسكة خيطًا رفيعًا لا يرى، مكّنني من أن أسرح بنفسي وأسيح بوجداني في ملكوت الأسرار، حالمة بإشراق نور وهّاج ينشيني، لا يحجبه عنّي سوى ستار شفّاف، سائلة طالبة متوسّلة:

المدد...

رمضان على الأبواب. والدار الكبيرة أرخت ستائرها وأغلقت أبوابها. لبست مما زاهية دفينًا ناصع البياض. تزيّنت بحراز رأس أبيض مطرّز بخيوط ورديّة. أضفت عليها حلّة وقار لم أعهده فيها. وجلست في ركن منزو من فناء الدار الكبيرة وسط

الضيفات، احتفالا بقرب شهر التوبة والغفران.

قبعت الضيفات وهنّ محفوفات بهم طاغ وفظاعات مكتومة مطأطئات الرؤوس في انجذاب لما تردّده نساء جوقة الذكر. ملتمسات المغفرة، راجيات أن يكون حلول هذا الشهر نهاية لاقتراف آثامهنّ. يذرفن دموعهنّ في صمت. تحسّرًا ندمًا رثاء لحالهنّ، تخفيفًا عن إحساسهنّ بثقل الذنوب وسوء الحظ. متذكّرات أسباب إصابتهنّ بهذه البلية اللّعينة، مجترّات مذاق فداحة مريرة.

من حين إلى آخر تتسلّل إحداهنّ إلى غرفة في الطابق العلوي، تقوم بنقش الحنّاء على أعضائها راجية داعية أن تكون قد تخلّت دون رجعة عن عرض جسدها في سوق نخاسة قبل أن تَمَّحي آثار تلك الحناء.

فمدد يا الله حتى لا يجدن أنفسهنّ مرّة أخرى مقهورات بجمع أشلاء أجسادهنّ، ثم طليها وتزيينها، وعرضها على مشتر داعر. حتى لا يجدن أنفسهنّ أمام من يمتصّ أجسادهنّ وينفث فيها سمومه ويلعنهنّ مع اللاعنين.

مدد... حتى لا أجد نفسي ووهج الأنوثة يقبل عليّ أنا المنتمية قهرًا لدنياهنّ والآتية من نسل الفجور أسير المسير نفسه.

مدد لحيّنا، أَنِرْ له الطريق يا الله.

عونك يا الله حتى يكون شهر رمضان بدرًا ينير الظلام، وخاتمة فصل بين سواد ليل وسطوع نور صارخ برّاق.

في الثانويّة، كانت ملابسي توحي بأنّني أنتمي إلى عائلة ثريّة. لكن، ما أن تعلم بعض التلميذات أنّني أعيش مع صاحبة الدار الكبيرة، حتّى ينصرفن عنّي وينفرن منّي. نفور أحاول أن أكسره بدماثة خلقي وتقرّبي من الكل، كأنّما أعوّض بذلك نقائصي وشعوري بالدونيّة. كنت أتجنّب ما أمكنني، التواصل مع التلاميذ الذكور، خشية أن يشار إليّ إشارات تربط تصرّفاتي بنشأتي في ذاك الماخور.

نزيهة، أستاذة مادّة الفرنسيّة التي كانت تعلم تفاصيل من حياتي، لم تكن تكفّ عن تقديم نصائحها لي. كانت تشجّعني كثيرًا على مواصلة دراستي وتقبّل وضعي. يوم التحقت بزوجها للعمل بمدينة الرباط أهدتني مجموعة روايات وكتبًا، للمنفلوطي وجبران والكيلاني ونجيب محفوظ وإحسان عبد القدوس... مع أنّني كنت قرأت وأعدت قراءة معظمها، إلاّ أنّني سررت كثيرًا بهديّتها.

تمرّ الشهور، وأتوغّل في أنوثتي. جسد مكتنز، ملامح بيضاء، يزيّنها شعر أسود فاحم، وعينان سوداوان يكلّلهما بياض ناصع،

وقامة كانت في أعين صديقاتي محلّ إطراء وغبطة، ومن أخريات محل ازدراء أو لامبالاة.

أنوثتي أزهرت، وارتعاشات لطيفة رخوة تنعش فؤادي. أوراق رياحين من نفحات هوى غامر تطرق أبواب قلبي، وإحساسات حانية تلفّ جوانحي. تنهمر عليّ رسائل إعجاب من أصدقاء الدراسة ومن أبناء الحيّ، وأتعرّض لتعليقات غير محتشمة، ولمضايقات كثيرًا ما تصبح منفرة في الشارع. بينما انصبّ إعجابي على جميل، وتدفّقت عاطفتي نحوه دون حواجز.

كانت صورته هي الوحيدة التي تخرجني من هواجسي وتساؤلاتي الملحّة المتعبة، وترحل بي إلى دنيا الجمال.

بملامح وجه مليح، وبسمة في العينين تكتم حزنًا دفينًا، كنت أحدّق في عينيه فأجد فيهما صفاء الأحلام، واطمئنان الروح. أحملق في عيني عبر المرآة فتسبقني دموعي تتبعها زفرات وتنهيدات. حين أرمقه يخفق قلبي يعتريني حزن جميل وينجلي عنّي كل الضجر.

تلاقت أعيننا مرّات، بانحناءة من رأسه وابتسامة كان يحييني. بدأت أغرق في بحره ببطء، ثم أحسست أنّني أندفع انجرافًا إلى عمقه. تلاقت ابتسامتنا لشهور، وكم تعلّلت لأنزل إلى الشارع كي أراه وهو يرافق بعض أقرانه. تشجّعت، بادرته التحيّة، احمرّ وجهه خجلاً فتلقّيت صورة غمرها البهاء، جعلت من عقلي مطرحًا ومن وجداني مرتعًا.

توالت التقاءات الأعين. شهبًا كانت تمطر روحي، وانغماس لا أستطيع أن أوقفه يجرفني نحو آفة الحبّ الجميلة المرهقة.

الخجل سمته. تشجّعت قرّرت أن أنهي كل هذا بحيث أبدأ، بداية كانت فيها نهاية ما تبقّى لديّ من طمأنينة، وفتّحا لأبواب ظلّت موصدة عندي، لم أع قدر ما تخبّؤه من محن إلاّ بعدما قرّرت فتحها.

باب تدفعك إلى باب، إعجاب، عشق، حب، وله، تيه، تساؤل، غيرة، فحيرة ثم عذاب... كل هذا فيك أيّها الحبّ! وكل هذا من أجلك أيّها الحبّ. نعمة سامية لحظة تذوّقها كثيرًا ما تصبح صعبة الاجترار. أصبحت أستحضر ما يردّده مطرب أغنية شعبيّة يؤدّيها في رنّة طروب أنّ الحبّ ابن كلب يسكن القلب. نعم سكن هذا الحبّ قلبي، بل قلبي سكن هذا الحبّ والتفّ عليه.

الْحُبْ وَلْدْ الكَلْبْ يَسْكُنْ القَلْبْ

آ مَحْبُوبِي

وَيّا اللِّي غَادِي وَغِيرْ بِالَّتِي بِالَّتِي

حلّ الخريف، غاب جميل عن الشارع وعن عيني. يبدأ المطر هذه الأيّام، وتنهمر زخّات عشق جميل داخل قلبي. عواصف أرعدت في فؤادي، الأغاني والأشعار والكتابات الشاكية من هذا الولع أصبحت تهزّني وتسيح بي. استعذبت سماع الشعر وصوت البحر والموسيقى وصوت جميل وهو يقهقه ضاحكًا مع أقرانه.

تمنّيت أن يصبح صوته أغنية أردّدها لوحدي. تهت مع انسياب السحاب. ورود تلفّني بالبنفسجي والأبيض والأصفر، وأزهار أخرى لا أعرف اسمًا لألوانها، وسجّادة مخمليّة تحملني على هذا البساط لكي ألمس الأفق، أفقًا ينشرني نشوانة.

صرت أحلم أنّي وردة وجميل يحاول قطفي، فتنزّ أصابعه دمًا. أحلم ببحر جدّ هائج يغطّي تطوان بأكملها، تقترب أمواجه الرماديّة العاتية من سطوح المنازل الممتدّة في سفح جبل المدينة. وأنا أستغيث من شرفة الدار، وجميل يلوّح لي من قارب خشبي صغير تتقاذفه أمواج عالية. لم يكن يستطيع الوصول إليّ، كان البحر يجرفه بقوّة إلى الداخل، إلى السديم. وأنا بصوت عالٍ أستغيث، أستغيث، لأصحو على ذعر شديد من صدع هذا الكابوس، ولتسبر عيني أغوار البيت حيث أتمدّد على سريري، فأجد ظلامًا حالكًا يحيط بي، ولغط صعاليك ومعربدين، وصوتًا حقيقيًّا لاستغاثة امرأة يشقّ مسامعي بعنف. لتستمرّ الاستغاثة بصوت منهك تحت شبّاك نافذتي، ولأطلّ، وأنا أرتعش، فأجد أيادي وأرجل مجموعة من السكارى تتقاذف في عنف جسد امرأة نصفه الأسفل عارٍ. وبعد أن بحّ أنينها خرست لتهوي على وجهها بلا حراك.

حان اللقاء، التقيت جميلاً في حديقة رياض العشّاق. وقف خجولاً متلعثمًا أمامي، ورعشة طفيفة تهزّ أصابعه حين يمدّها قربي. تحدّثنا باحتشام عن الدراسة وعن الحبّ. جلسنا حول شجرة. الشمس، وكأنّها تعاند لقاءنا، ألهبت وجهينا وجعلتنا

نختم اللّقاء بسرعة. خمد الخوف داخلي، وحلّ محلّه حبّ جميل مقرونًا بخوف جديد. وصل خبر لقائنا إلى عائلتي. ومما رحمة أوّل من نبهتني موصدة أمامي باب حلمي، بأنّني لا أزال صغيرة، وأنّه عليّ أن أولي الاهتمام لدراستي، في انتظار زوج طيّب صالح. يأمرني سي الأمين بزجر أن أوقف هذا الهراء، يذكّرني بمعنى الآية القرآنيّة أن النساء لفروجهنّ حافظات. تسمّرت خجلاً، وحال لساني يسأل:

ـ كيف لي مما رحمة أن أهادن ما يعتلج في صدري؟

أجابتني، وهي تنظر بنظرة حنون:

ـ إنّها غواية ووسوسة الشيطان يا ابنتي. كم كان الحبّ سببًا في تواجد نساء في دور كالدار الكبيرة، وكثيرات من ضيفات تلك الدار كان سببهنّ الحبّ. حبّك يجب أن تحتفظي به للشخص الذي ستتزوجينه، لقد أصبت بمرض خبيث، صَلّ وادع الله أن يشفيك.

مما الزاهية وسط الزحام تجرّ جميلاً وهي ترعد وتهدّد، وهو يرتجف ويقسم بأنّه لا تربطه بي أدنى معرفة. أخرجت سكّينًا صغيرًا، قرّبته إليه، في محاولة لتشريط وجهه، أدّتها بتمثيل متقن والسكّين مقلوبة، جعلته يظنّ أنّ وجهه حقًّا قد خرق. وأنا، صفعة على خدّي وعيني أسقطتني أرضًا، كانت نصيبي من ردّ فعلها، وقسمًا بأن لا أخرج إلى الشارع بعد اليوم:

ـ لن تكوني عاهرة ما حييت.

بعد أيّام، التقيت جميلاً، نادى عليّ فلم أجبه. أيّ شيء يوقف رجفاتي حين أراه؟ ما الذي يصدّني عنه ويمنع يدي التي تريد أن تتطاول أمامي لجذبه نحوي؟ من يوقف قلبي، وهو يدفعني نحوه؟

هو الذي اندفع نحوي، أوقفني. ألم وفرح يتضاربان داخلي. جمعت كل طاقاتي، وقذفت كلماتي بسرعة:

ـ لنفترق، أرجوك لا تحاول الاتصال بي.

خارت قواي. لفعني السقم. نسجت صورة جميل آلاف المرّات، سيطرت على ذهني بطريقة غريبة وأفرغته من كل ما يحتويه ثم سكنته. يختلط عليّ ألم عشقه مع رغبة رؤياه. رغم مقاومتي الشديدة كنت أجد نفسي متلصّصة عليه، وهو يقف مع زملائه قرب حائط المسجد، أو أقتفي أثره حين يمرّ بساحة السوق السفلي.

ساحة السوق السفلي مثلما كانت مقصدًا لرؤية جميل، كانت ملاذًا كلّما أحسست بالضجر، ومتنفّسًا لكل من ضاقت به دور أحيائنا ولفظته. سوق عارمة، يستمرّ فيها الصخب طيلة النهار ليخبو مع حلول الظلام، وينطلق هرج من نوع آخر.

تكتسي الساحة حلّة أخرى، وتصبح ملجأ لمروّجي الخمور والحشيش، ومعبرًا للمصلّين القاصدين أحد المسجدين المتواجدين على جانبيها للصلاة، وممرًّا لي، بعد خلق مختلف الأعذار للخروج، لعلّي أصادف طيف جميل.

لليل نكهته الخاصّة في هذه الساحة، نكهة مفعمة برائحة الخمر والحشيش وبول السكارى، وريحة أجساد الباغيات وعطرهنّ المميّز، ورائحة الخبز الطريّ الساخن المعروض للبيع. كل هذا يمتزج بأريج التوابل المتنوّعة المعروضة في عشرات الدكاكين المحيطة به، وبشذى طهر المصلّين. فتختلط الروائح لتجعل حاسّة الشمّ لدى المارّ من السوق أو القاعد هناك في ذهول من نشوة هذا المزج.

هذا العبق الذي خدّر كَارْمِنْ حين مرّت من هنا. إسبانيّة شقراء تشتغل مدرّسة للفنّ بمدريد، حلّت عندنا سائحة، لكنّها فضّلت البقاء. تقول إنّها هربت من حضارتها، وحضرت إلينا لتحضر احتضار حضارتنا. ممتلئة بسكرات هذا الاحتضار، وبطعم حشرجاته، لم ترغب في الرحيل. أقامت في حيّنا وأباحت لنفسها عشق ما تودّ عشقه. أصبحت مؤنسة لأوغاد حيّنا وزوّاره، متسامرة معهم، متذوّقة لجمالهم، كما كانت تقول، ومبيحة لهم جسدها أنّى شاءوا، وكأنّها تنتقم منه، ناهلة ما استطاعت من نعم حضارتنا قبل أفولها! وطالبة من مما الزاهية أن تقبلها باغية من بغايا الدار الكبيرة، جالبة أكبر عدد من الزبناء، وباحثة عن لذّة مفقودة لم تعثر عليها.

أدمنت كارمن الخمر الرخيص وتدخين الكيف الممزوج بالحشيش، ولازمت الاستماع إلى أهازيج أغنياتنا الشعبيّة.

كانت تقول إنّها تجد في مدّات الأصوات المبحوحة لأفراد المجموعات الغنائيّة لساحة حينا، زخرفة وتنميقًا مميّزين، وأنّ الإيقاعات المنبعثة من آلاتهم التقليديّة تهبها توازنًا روحيًّا تفتقده، وتوحّد مشاعرها مع مشاعر أهل حيّنا، حين تكون اللّغة عاجزة عن خلق ذلك التواصل. ثم تؤكد أنّ براعة العزف وجماليّة الجمل الموسيقيّة التي تتذوّقها بنبضات قلبها تجعلها تحسّ بنبضات قلب حضارتنا وهي تحتضر!

سماعها إيقاعات الفرق الموسيقيّة، وخاصّة المحاكية للإيقاع

الكناوي والغيواني والحماتشي والجبلي يزرع في أحشائها بذرة نشوة روحانيّة. تقول عنها كارمن إنّه لا يمكن تخصيبها إلاّ بواسطة الرقص. تنزع حذاءَها في احترام، وتدع شعرها الأشقر يسترسل على كتفيها في انسياب، ثم تتقدّم إلى وسط الساحة في خشوع وسكون يغشيان محياها، كأنّها مقبلة على أداء وصلة من طقس تعبّد ديني. تنطلق ثم تسترسل في الرقص، رقص مجهد دون توقّف، كأنّما تريد من تلك المكابدة والمجاهدة تخلية نفسها من الأرذال والشوائب، وتحليتها للوصول بها إلى درجة الصفاء، حتى تتمكّن من تذوّق كل ما هو جميل، مدّعية أنّها تتبع في ذلك مناهج طرقنا الصوفيّة. لكنّها لا تكاد ترقى إلى تطهير نفسها وتحليتها بالتسامي عن شهواتها كحال متصوّفتنا، حتى تستسلم لشهواتها، لتلتحق للإقامة كضيفة متميّزة بالدار الكبيرة.

تذوّقها الجمالي لم يقتصر على الإيقاعات الموسيقيّة لوحدها، شمل الفنّ المعماريّ للأحياء العتيقة لمدينة تطوان، وطريقة لباس نسائها. كانت تجول بعينيها بين قبب وأسوار وأقواس مدينتنا العتيقة، تتأمّل الدور، شكل أبوابها، وزخرفاتها وفسيفساء حيطانها، سقوفها وفناءاتها... ثم تحوم باندهاش حول أعمدة بيوتها، وترابيزها ونافوراتها المتناثر ماؤها وسط حدائق البيوت.

بعدها تمعن النظر في النساء المحجّبات والمتواريات خلف شبابيك الدور ومشربياتها، ثم تعلّق في ذهول مغلّف بانتشاء:

ـ إنه لمنتهى التآلف بين الشكل والمضمون. من بين الحقائق

الجميلة في الكون تناسق الجمال. وهذا التناسق يظهر عندكم في أكثر تجلّياته بين معماركم وزخرفة دوركم وحالة وطريقة لباس قاطنيها.

ثم تضيف:

ـ تداخل أبنيتكم، تشابكها ببعضها، أقواسها المتعدّدة، دروبها الضيّقة، سمك جدرانها، وشبابيكها التي لا تطلّ إلاّ على الداخل، الأسقف العارية لفناءاتها، والتي تجعل ساكنيها لا يرون إلاّ السماء... ما هو إلاّ معمار خطّطه رجالكم من أجل المرأة، خوفًا عليها من أعين المتلصّصين ورغبة في الاحتفاظ بها لؤلؤة مصونة، وما ذلك إلاّ تقدير للمرأة عندكم وصون لكرامتها.

لكن، ما إن تصبح نشوانة دامعة العين من فرط سكرها حتى تخاطب من حولها:

ـ أيّ تكريم لامرأة مسجونة؟ كأنّك تكرّم عصفورة بوضعها في قفص من فضّة.

وعن شارع شانتي الكبير، الذي بناه الإسبان في عهد الاستعمار، كانت تقول إنّها تجد في جماليّة معماره بنماذجه المختلفة، من غرناطي إلى طليطي إلى قرطبي إلى إشبيلي، امتدادًا وتمازجًا للروح الجماليّة لحضارتين مختلفتين، حضارتنا وحضارة الإسباني.

كان يحلو لها السكر أكثر في مبنى القصبة. ثكنة بناها الاستعمار تطلّ على مدينة تطوان، وصارت اليوم بناية مهجورة.

وهناك كان إحساسها بالجمال يفقد نكهته، حين تمدّ بصرها جهة أحزمة البناء العشوائي الجديد المشوّه والمحيط بالمدينة، فتغشى محياها آثار غثيان وتصرخ:

من أبناء العاهرات الذين سمحوا لهذه البشاعة أن تتناسل؟ بنايات كأنّها سليلة زنا المحارم خلقت لتشوّه معالم المدينة ولتفسد التذوّق الجماليّ، مساهمة في الإسراع بعمليّة احتضار حضارتكم.

* * *

وكما احتضنت ساحة السوق السفلي رقصات كارمن، كانت حلبة لصديقين وهما يرقصان رقصًا موجعًا على بريق نصلي خنجريهما وهما يمزّقان الهواء محدثين صفيرًا، وكلّ واحد يحاول قصّ ما يصل إليه خنجره من جسد الآخر. شطحتهما لم تكن على أصداء أهازيج موسيقيّة، بل نتيجة اكتواء روحيهما بحبّ فتاة أغوتها أنوثتها في بدايتها الملحّة، فانزلقت بينهما كنحلة تخطف من رحيق الاثنين معًا، دون أن يعلم أحد بالآخر، ودفعتهما إلى أن يؤدّيا أمامنا أنا وسعيدة ومجموعة من المتجمهرين وكارمن رقصتهما الموجعة المميتة.

ـ كل سجين إلاّ وراءه امرأة.

ـ نحن النساء خلقنا من الضلع الأعوج، كثيرات منّا يوسوس لهنّ الشيطان فيعثن في الأرض فسادًا، ويخلقن في عقول وقلوب الرجال افتتانًا.

هكذا كانت تحدّثني مما رحمة بعد أن تتعوّذ بالله من الشيطان الرجيم.

وحسناء وسوست لها أنوثتها أن توقع في غرامها صديقين

جمعت بينهما نضارة الشباب وملاحة الوجه. وبإعجاب لا يصدّ، كانت توزّع عاطفتها المتدفّقة عليهما دون حواجز. ولأنّ الجمال فتّان، كما تقول مما رحمة، غاص الصديقان في الوله بها. تفنّن كل واحد في إغرائها، ولم تتوان في إبراز تودّدها وإرضاء كلّ منهما دون احتساب. وبحبكة النساء في اختلاق الأعذار والتمويه، للتخفيف من ضغط الرقابة عليها ولمسايرة رغبتها، تمكّنت من مواصلة العلاقة بهما معًا دون أن يعلما. إلى أن حلّ صباح ربيعي دافئ. حسناء تجالس عمر في المقبرة وعزّوز يضبطهما عندما كان في زيارة لقبر أبيه. اشتعلت نار الغيرة لدى الشابّين، فاستعرّت دفعة واحدة محطّمة كل الحواجز، لتهمد الصداقة، وتنطفئ وتخرج المطاوي من أغمدتها.

يفترش الظلام ساحة السوق كلّيًّا، ويغطّي جوانبها إلاّ من انعكاسات نور خافت لمصابيح كهربائيّة معلّقة فوق أبواب الحوانيت. تصبح الساحة حلقة للمبارزة. ونحضر أنا وسعيدة نهاية قصّة حبّ توشّح أبطالها بأوسمة من نياشين الدم.

بين هياج المتناحرين وخفّة حركاتهما، ولعلعة صفير الخنجرين، كان كل واحد يحاول اصطياد الآخر.

وقفت كارمن مبهوتة، مستعذبة الفرجة، تتمنّى ـ كما قالت ـ لو كان الشابّان يتقاتلان من أجلها. لم تجد محاولة إيقاف نزيف هذه الأرواح، مثلما لم تجد صرخات وولولات أخت عمر التي أقبلت للتوّ.

كأنّ صراخها لم يكن إلاّ ليزيد هذان الثوران تهيّجًا، ويمنحنا

نحن المتحلّقين ألم مأساة الفرجة، ووجع الفرجة على المأساة. ومع مرور السكاكين وهي تشرخ الهواء، وتنشف الريق في حنجرتي، وجد أطفال حيّنا فرصة أخرى للهو. بدؤوا يصفّقون للملهاة، يشجّعون كل من بدرت منه بادرة هجوم، ويتأسّفون عند كل فشل محاولة اصطياد أحدهما للآخر بمطواه.

في البداية، ككل بداية، كان خدشًا بسيطًا أصاب ذراع عزّوز، فتعالى الصفير واشتدّت التحذيرات. وبين هلعنا وعشق إتمام الفرجة، كبرت البداية، لتنتهي قبل نفاذ صبرنا ونحن مشدودون بشدّة إلى ما نرى، لتنتهي ككل نهاية كانت بدايتها مفجعة.

كرّ وفرّ، هجوم وصدّ. وفي لحظة انزواء المتصارعين عند مدخل منعرج لأحد الدروب، تسمّرت عيناي على مشهد الخنجر، وهو ينغرس بقوّة في قلب عمر، وتتكرّر الضربة ضربات متتابعات، يتهاوى متلقّيها، بعينين جاحظتين، وكأنّه يلتقط الصورة الأخيرة في حياته. صورة صديقه قاتله وهو يغتاله بدم بارد. تهاوى عمر ببطء ليرتطم رأسه بركبتي، أنا التي كنت قد هرعت خلفهما لأكمل المشهد. خفّ ألم رجلي من شدّة الارتطام، لكن أحداث تلك الليلة وشمت روحي بوشمة نصل لم تندمل.

وقصص الغرام في حيّنا لا تنتهي. تبدأ حكايات جديدة قبل أن تنتهي الأخرى. تبدأ عادية، وكم تنتهي مآسي وفواجع.

وحيّنا لا ينسى الطبيب الوسيم الذي افتتن بفطيمة وأصبح يصعد عقبة زنقتنا ليقف قبالة نافذتها، فيتيه في حبّها ويتزوجها رغم معارضة أهله. وفطيمة بقدّها الممشوق، وجسمها البضّ وعينيها الغائرتين في لجّة الغنج، لم تكن لتنهي غراميّاتها المتعدّدة، رغم حصولها على العريس الذي يعتبر ضربة حظّ ومنًّا إلٰهيًّا بالنسبة إلى بنات حيّنا. لم تكن عائلتها لتمنعها، بل أصبح منزل والديها مكان لقاء مع واحد من عشّاقها. تاجر ذهب ثري يحمل في جيوبه، حين حضوره للقائها، ما يوازي لهفته على مقارعة جسدها. وتستمرّ مسرحيّة الحبّ في حيّنا، ويكثر الزائر من صلة الرحم لدار فطيمة. يستشيط الطبيب غضبًا، يعنّفها، يضربها. لكن فطيمة وأمها طيّبتان رقيقتان لدرجة تليين كل ما هو صلب، وإخماد كل ما هو متّقد بوسائلهما الخاصّة التي تتزوّدان بها من عطّارين بالقرب من حيّنا، فتضعف نيران الطبيب بلطف، ويصبح أكثر تسامحًا وحنانًا. تذوب غيرته وغضبه وعنفه. يلازمه صداع دائم وهزال، يزيد في انطفائه. وتتوهّج نار فطيمة فيزورها

بائع الذهب والطبيب قابع في أحد أركان البيت برأس يهتزّ فوق جسد يلفّه نحول ذابل ولعاب يسيل دون توقّف. تحضر عائلته، تحاول إرغامه على العودة إلى العيش معها، تنعت الزوجة وأمّها بأقذع الألفاظ، لكنّه يرفض بشدّة، متلذّذًا الموت ببطء، يصمت ويسكت قبل أن يصمت صمته النهائي.

سرير الاستراحة

ـ هل رأيت جميل؟

خفق قلبي للسؤال.

ـ نعم شاهدته البارحة، في ساحة السوق.

أردفت:

ـ كيف حاله؟

أجبتها في اشتهاء:

ـ يزداد جمالاً، طبعًا في عيني.

صمتت سعيدة، واصلنا خطواتنا، استدارت نحوي في وجوم:

ـ منذ مدّة وأنا أرغب في أن أخبرك... لكنّني لم أجرؤ.

تطيّرت من كلامها. دقّات قلبي ارتفعت بوتيرة سريعة.

ها هي سعيدة كعادتها تأتيني بالجديد. توتّرت، رجعت بذاكرتي يوم أخبرتني في مرحلة مبكرة من طفولتي بحقيقة الدار الكبيرة ومما زاهية. توجّست شرًا، أنفاسي تتصاعد بعنف.. ماذا

يا سعيدة؟ أنا أعلم مسبقًا ما ستقولينه، أعرف أنّ جميلاً جذّاب، وأنّ عددًا من فتيات الثانويّة معجبات به، وأنّ كثيرات منهنّ يختلسن النظر إليه ويتودّدن لعلّه يتجاوب. لكن ما يهمّني هو اهتمامه بي أنا. معجب بي أنا. وأنا أحببته وسأواصل حبّي له، وأنت، وكل الحاسدات، فلتذهبن إلى الجحيم.

هذا ما كان يمور داخلي لحظتها بصوت الصمت، إلى أن تكلّمت سعيدة:

ـ جميل ليس برجل!

لسعتني كلماتها، طفق دمي يغلي ويفور داخل عروقي. لم أجبها، أحنيت هامتي وأسرعت بخطواتي.

ـ أريني أين هم الرجال؟ صعاليك حيّنا رجال؟ أمن أناديه أبي رجل؟ أمن قذفني في بطن أمي التي ولدتني رجل؟ هل أرذال مدينتنا رجال؟

وأنا أفيق ممّا يجول بخاطري تطلّعت إليها في انفعال، وقبل أن أعقب، تمادت سعيدة في قولها:

ـ هذا ما يشاع عنه. لقد وصفه لي بعض الأصدقاء وصفًا غير أخلاقي.

ـ قالوا في حقّه أقوالاً ساقطة....

دوّامة جرفتني، التياع حادّ أصابني. أحسست كأنّ الحياة تنسلّ من تحت قدمي.

توجّهت إلى يطو. دون مقدّمات انخرطت في بكاء غزير، شرعت تربت على كتفي، هدّأت من روعي.

بدأت أحكي لها، أخبرتها ولهي بجميل. ودون أن أتعمّد وصفه، حدّدت بدقّة لون عينيه، تسريحة شعره الحريري الأسود، صوته، حركاته، لباسه الأنيق، وككل محكي عنه تستهويه النفس استرسلت في إبراز مفاتنه. حاكية مسكونة بالعشق. أفضت في الكلام إلى أن أوقفتني يطو في برود:

ـ وبعد...

كأنّي أزيح عن صدري غشاءًا ثقيلاً، بحت لها بما ذكرته سعيدة. كان ردّ يطو فاترًا. نظرت إليَّ مليًّا، ثم نصحتني بأن أنسى هذا السراب، وأن أهتمّ بدراستي. نبّهتني إلى أنّ مكابرتي بما أسمّيه حبًّا لجميل، ستلقي بي في متاهات أنا في غنى عنها. وقبل أن أغادر بيتها، استدارت نحوي:

ـ اتركي لي متّسعًا من الوقت، سأحاول أن أتأكّد من ذلك.

* * *

أسابيع مرّت وأنا أتشوّق لمعرفة الحقيقة. اكتويت فيها بحبّ جميل، وما حكت لي عنه سعيدة.. ظننت أنّ يطو ما عادت تشغل نفسها بتفاهة حكايتي. لكنّها طرقت باب منزلنا يوم سبت والشمس تجنح نحو الغروب، وطلبت منّي مرافقتها.

واجمة كانت. وأنا خطوات متكسّرة تسير خلفها. بعد قطع دروب ومنعطفات، طرقت يطو بابًا ضيّقًا لأحد المنازل. فتحت

لنا امرأة تزحف على وجهها علامات الشيخوخة، استقبلتنا بترحاب. عرفت من كلامها أنّها كانت من ضيفات الدار الكبيرة.

صعدنا سلاليم ضيّقة أفضت بنا إلى بيت تتوسّطه نافذتان تطلّان مباشرة على ساحة المخازن. باحة واسعة تحيط بها متاجر ودكاكين واسعة للخزن والبيع بالجملة، بضائع مختلفة من حبوب وجلود ونسيج، وقبالتنا تصطف مخازن الألبسة التقليديّة.

مع حلول الظلام، تتحوّل بعض المتاجر إلى نوادٍ للدردشة واستقبال الأصدقاء، وبعضها الآخر إلى أماكن دردشة من نوع خاص.

أطفأت يطو المصباح الكهربائي. ناولتني وسادة أتّكئ عليها، تحلّقنا حول إحدى النوافذ. أجلس بإحساس المنتظرة شخصًا غير راغبة في قدومه. بلهفة لقاء شخص أتمنّى اللّقاء به ولا أودّ أن ألقاه. بل لا أرغب في رؤيته. لكنّني رأيته رغمًا عنّي.

الليل أظلم، وظلامه لم يحمل معه إلاّ قلقي. والبدر كان غائبًا لم يطلع هذه اللّيلة، لكنّ قمري وحده ظهر.

وهو يجرّ رجليه في خيلاء، ولج جميل باحة المخازن. قصد بابًا مواربًا ودخل. نور خافت لمصباح يشعّ داخل المخزن. توجّه يجلس قبالة شبّاك واطئ، مكّنني من مشاهدته بوضوح.

تحلّقت جماعة حول مائدة رصّت فوقها قارورات لم يكن شكلها غريبًا عليّ، كانت زجاجات خمر. صخب وهرج حول المائدة، ضحكات مجلجلة تخيّلت أنّ صداها يصلني.

تناول أحد الحاضرين المتزيّن بطربوش أحمر آلة عود وشرع يعزف. شاركه الآخرون النقر على حافّة المائدة، والضرب على أكفّهم.

جميل يشارك الجماعة طربهم. بين الحين والآخر يتعمّد تمييل شعره يمنة ويسرة على كتفيه. امتدّت يد أحد الحاضرين لتربت على كتفه. تطاولت اليدّ فمسّدت شعره. رمقتني يطو بنظرة استغراب، وكأنّها تستفزّني وتودّ إثارة انتباهي. شعرت بدبيب غصّة يخنقني. تحمّلت. حاولت أن لا أعير الأمر اهتمامًا. حركة أخرى من يد الجالس بجانب جميل كانت كفيلة بأن تنزع منّي ما تبقّى لديّ من اطمئنان يداري قلقي.

فقد مدّ العجوز ذو الوجه المدوّر والجسم المتكوّر من فرط سمنته يده مداعبًا وجنتي جميل؛ في حركة ماجنة نزعت ما تبقّى عندي من أمل. كان الفتى يواصل التدخين في انتشاء ويتناول الكؤوس التي يقدّمها الشيخ له.

غيّرت من قعدتي حتى أتمكّن من تدقيق النظر. المتحلّقون حول من أحببت كانوا عجائز وكهولاً، يعلو وجوههم الوقار. وقار يخفي مراتع مجون طائش أهوش وفتاي بينهم، فتاي الذي أحببت وخلته فارسًا قادمًا من حلمي ينتزعني ممّا يحيط بي.

عيون يطو كانت تتقلّب بين أوجه السامرين. تنظر تتطلّع وتطيل تحديقها بحيرة المكتشفة لفداحة ما يرى. حتى هي الغاصّة في دنيا الانحراف أزعجها ما تشاهد.

حسبت أنّ الدار الكبيرة منتهى التردّي. فها أنا أعيش ما لم أجد له اسمًا في دنيا الفسق.

ها أنا الحالمة بمهر يمخر بي عباب حارتنا، أمتطيه وأودع مخاوفي وأشجاني وعطانة حيّنا. أجد في حبّي الذي سكنني وجهًا آخر للخسّة. كأنّني منذورة لعهر يتفرّع من كل جنباتي، من تحت ضلعي، يعرش حولي ويعشعش فوق كل خصلة من شعري. نفسي تتقرّح، فتتقيّح دماميلها صديدًا برائحة الصديد المتقيح نفسه من أعضاء ضيفات الدار الكبيرة حين تهترئ.

خاطبتني يطو بلهجة تخفي غضبًا:

ـ ها أنت ترين. الرجال يتّهمون النساء دائمًا بالفسق، وهم يغوصون في دنيا الشياطين.

ولّيت ظهري جهة المخازن. وددت لو أرمي كل ما عاينته خلفي، خلف أيّ شيء، المهمّ أن لا أراه أمامي.

تأكّد لي ما قالته سعيدة عمّن أحببت. شرايين قلبي التي تشكّلت على شكل اسم جميل وها هي ذي اليوم تتفكّك.

انطفأ النور في المخزن، وقبله انطفأ الوميض داخلي. نهض السامرون للانصراف، استعجلتني يطو للخروج.

دوالي ساقيّ طالها ارتعاش، ونحن نتتبّع بتخفٍّ الشيخ وجميلاً خلف التواءات ومنعطفات الأزقّة. عرجا على أحد الدروب الخالية، كانا يسيران الهوينى. أمعنت النظر في الرجل. أوليس

غريمي ومنافسي في حبّي!؟ تعلو وجهه سمرة داهمة، وعينان بارزتان في جحوظ، يحمل فوق رأسه قلنسوة حمراء. يرتدي عباية فضفاضة، وسلهامًا أسود مسجّى على كتفيه. بيده اليسرى يتّكئ على عكّاز فضّي المقبض. ثقل السنين وفائض شحم جسده يجعلانه يخطو خطواته بتؤدة، مستعينًا بوضع يده اليمنى فوق كتف جميل.

كّنا نتبعهما عن بعد. أنفاسي تتردّد بصوت مسموع. خطوهما البطيء يدفعنا للتوقّف أحيانًا، متسترتين خلف مداخل الدروب. دلفا إلى زنقة الروضة، وفي درب منزو ولجا منزلاً، ليشعّ بعد ذلك نور مصباح أشعل للتوّ، لتشتعل في كياني نيران كاوية، ولهيب غيرة ممزوج بغضب حارق.

كانت يطو صامتة مطرقة برأسها، وكمن يفيق من غفوة خاطبتني:

ـ ها أنت تتبّعت المشهد إلى نهايته.

نعم، مشاهدي أنا غريبة لا تنتهي غرابتها. حتى في غيرتي أغار على من أحببت من رجل مثله.

كدت أصرخ، موقف أوقد فيّ رغبة بكاء بدموع حارّة، غير أنّها كانت جافّة متحجّرة داخلي، ممانعة ترفض الاندلاق. رغبت في العودة، تحرّكت ببطء، رغم أنّني تمنّيت لو أسرع بخطواتي هاربة ممّا أنا فيه، ومن نفسي.

أرفع حواشي جلبابي عن الأرض. أجرّ نعلي بثقل ناكسة

الرأس، محدّقة في قطع الحجارة التي رصف بها الزقاق، أحاول إيقاف استرسال مخيّلتي.

ها أنا عرفتك يا جميل، فهل سيموت حبّي لك بعدما عرفت ما لم أكن أتخيّله يومًا فيك؟ أم سأتقرّب إليك مرغمة بحبّي؟

تتوجّه يطو نحوي وهي تضحك:

ـ كم المنافسة شرسة في ميدان عملنا، حتى من طرف الرجال.

ثم تلفتت نحوي بعينين تحملان شفقة:

ـ أنت ما زلت صغيرة. يوم يكبر الإنسان يعرف أشياء يتمنّى أن لا يعرفها. صمتت ثم تابعت بكلمات يطفو عليها حزن آسر:

ـ وقد يجد نفسه مضطرًّا للقيام بأفعال لم تكن لتخطر بباله.

تمتمتُ بامتعاض:

ـ إن كنت سأرغم على القيام بمثل ما تشيرين إليه في كلامك حين أكبر، فلتتجمّد عروقي وليجفّ دمها. ولتصبح رئتاي أوراق رماد، وليتفتّت قلبي كحجر جير في النار.

وقفت أمام المرآة. أمعنت أحدّق في تفاصيل جسدي الذي كنت أرى فيه مصدر امتلاء وزهو فأصبح لي الآن مصدر مقت ومصبّ مقت بغيض. تذكّرت جميلاً، استحضرت جسده أمام جسدي، أطلت النظر في المرآة، غمرتني كراهية حدّ الغثيان. تمنّيت لو أترك جسدي في المرآة وأنصرف.

نحن النساء كثيرًا ما تصبح أجسادنا وعوراتنا منبع آلامنا. وأنت يا جميل كيف كان جسدك سبب فجيعتي فيك؟

تساءلت كيف تلعن أجساد ضيفات الدار الكبيرة، من صاحباتها ومن عابريها. كيف تصل كراهية نساء حيّنا لأجسادهنّ إلى درجة إحراقها أو فلحها بالسكاكين. تذكّرت:

* يوم انتابت طيما نوبة عصبيّة فمزّقت يديها ووجهها وأسفل بطنها بعنق قنّينة مكسّرة، ولولا انقضاض مما زاهية عليها لأكملت فلح كل أطرافها.

* حين وضعت الضبّة الكحلا قطعة حديد فوق مجمر فحم ملتهب حتى قربت مادتها من الانصهار، ثم كوت بها بطنها، محاولة إسقاط حملها، فتقرّحت بطنها وتعفّنت حتى ماتت، بعد

أن ظلّ صراخها من آلامها يشقّ حيطان الدار الكبيرة وأسوار جارتنا لأسابيع.

* عندما عادت جارتنا الموكا من رحلتها المتعبة باحثة عمّن يفرغ فيها لهاثه مقابل دراهم قليلة تقتني بها ما تطعم به إخوتها المعاقين الذين لا يقدرون على المشي. يومها هرعت على إثر سماع ولولات امرأة، لأجد الموكا شبه عارية، والنار تلتهم شعرها وجلدها، بعدما صبّت على نفسها بنزينًا وأوقدت النار. كانت تستغيث وأنا على مقربة منها، تتمزّق كبدي الملتاعة، ولا أستطيع أن أقدّم لها يد المساعدة. إلى أن ارتمى عليها هونگي، شابّ من شباب الحيّ، دثّرها بلحاف صوفيّ مكّن من إخماد النار.

بعدها واصلت حياتها، ليس كبائعة للهوى، لأنّها لم تعد تملك ما تبيعه، بل متسوّلة أمام باب مسجد السوق السفلي.

كثيرات، منتفضات ضدّ قهرهنّ وانتقامًا من أنفسهنّ، يلجأن إلى تدمير أجسادهنّ. وأنا إن كنت أحافظ على جسدي، فنفسي تتشتّت كالمرايا المهشّمة.

شظاياي انشطرت وتناثرت. حلمت أن يكون الململم لها جميل، فإذا به هو نفسه بقايا شظايا. وحين حاولت لمّها، ضمّها لبعضها جبرًا لصورته، لم تطالعني سوى صورة مخدوشة الوجه، تتقزّز نفسُ الناظر إليها. لم تكن سوى صورتي.

خرجت رفقة سعيدة في فسحة إلى شارع شانتي. كان الجوّ رهوًا والشمس في هدوء تسحب حرارتها وأشعّتها من فوق الأرض. بخطى متّئدة نغدو ونروح بين المارّة الذين يكتظّ بهم الشارع. بين الوجوه أجول بعيني علّني أرمق جميل. كل رأس ينسدل عليه شعر أسود مسرّح ناعم يذكّرني به. كل ضحكة قويّة تجعلني أتطلّع مترقّبة صورته. الزحام كان على أشدّه. شعرت بحزن وقلق يلفّاني.

تبادلت الحديث مع سعيدة لعلّي أخفّف من توتّري. لم أدر كيف تحوّلت حالة قلقي إلى رغبة كبيرة في التبوّل، جعلتني أحسّ كأنّني سأفرغ كلّ ما يرهقني.

حاولت أن أتناسى رغبتي، لكنّها أبت أن تتوقّف. أتلهّى بالحديث مع صديقتي. وخز يؤلمني جهة مثانتي. شرعت أبحث حولي علّني أجد مكانًا لإفراغ ما يثقلني. تذكّرت أنّه لا وجود لمراحيض بشوارع المدينة.

أخبرت سعيدة، وطلبت منها أن نسرع بالعودة إلى المنزل. كنّا وسط الشارع، وحيّنا بعيد. وأنا ما عدت أتمالك بولي.

خطرت لي فكرة أن أتبوّل ماشية، أن أدع سائلي يتدفّق على سروالي دون طقس الاستعداد، ودون أن أتوقّف وسط الزحام الذي يمتدّ أمامي إلى ما لانهاية.

خفت أن يظهر البلل واضحًا على ملابسي، وأن تنتشر رائحة البول أمام الرائحين والغادين. كيف ستكون حالتي إذا اندفع السائل منّي دفعة واحدة؟ وكيف سيتصرّف أولئك الرّجال القاعدون بالمقاهي الممتدّة على أرصفة الشوارع؟ رجال تآكلت أعينهم من حدّة التطلع يمنة يسرة خلف النساء العابرات، بنظرات اعتراها الصدأ، متعقّبين حركاتهنّ، مشيتهنّ، فاتحين لكل عابرة ملفًّا. مستخدمين في ذلك توثيقًا وأرشيفًا، توثيقًا لخطوات المرأة، لانفراجات فمها. للباسها ولـ... لـ... ومدى تآكل كعبي حذائها.

أنا وسعيدة كنّا نعتني بأحذيتنا كثيرًا، نصلحها عند سرطحا، ونعيد صباغتها حتى لا يتبيّن لهؤلاء القابعين كتماثيل لا تتحرّك فيها إلاّ الأعين والأفواه، أنّنا آتيات من حيّ مهمّش. معظم أزقّته ودروبه غير مرصّفة، ممّا يجعل أحذية ساكنيه تحمل دائمًا بقايا وحل وأتربة.

عادة، حين نمرّ قبالة هؤلاء المنثورين على أفاريز المقاهي وجنباتها، نسرع الخطوات مانعين عنهم لذّة التمعّن. أمّا، وأنا أمرّ أمامهم ومثانتي على وشك الانفجار، فتلك حالة تتطلّب جلدًا وتحملاً، حتى لا يشقّ هذا السائل تجاويفي وينفجر بقوّة أمامهم، فيجدون فرجة وموضوعًا لصقل فطنتهم المعطّلة من كثرة اجترار

المواضيع السخيفة، ونفسًا جديدًا للمكوث أكثر على كراسي المقاهي متثائبين بثقل ومستسلمين لبلادة راسخة.

بدأت أحسّ السائل ينطلق من مثانتي، ثم يمتدّ أفقيًا، بعدما حبس مخرجه، ليحفر في تجاويف جسدي. تحوّلت الحسرة إلى ألم لا يطاق، مثانتي تكاد تنفزر.

غابت عنّي صورة جميل، أنستني آلامي ألم حبّه.

فلتتضاعف حسرتي ولتمزّقني إن كانت ستقودني إلى نسيان جميل، وليحفر هذا السائل المقزّز سواقي من نفسي المهدودة من مجاهدة حبّه، ولينظّفها من بقايا ما علق بي من عشق موبوء. ليطأ كل حفر منخور، وليعتمر قلبي وجوانبه، وليملأ كل ترعة وليغرق كل خليّة منّي.

قهرتني حسرتي. لم أعد أطيق صبرًا. رجوت سعيدة أن ندخل إلى أقرب مقهى، خاطبتني ساخرة:

ـ روّاد المقاهي رجال، إن دخلت فسيصفّقون حين دخولك وحين خروجك.

أشارت عليّ سعيدة بأن نتوجّه إلى مرحاض عمومي بشارع باب التوت، سرنا بخطو حثيث جهد طاقتنا. وصلنا مستشفى باب التوت، أمامه، في ركن من سور المدينة القديمة، ينزوي مبنى صغير كتب عليه بطلاء أحمر بلغة غير سليمة (مرحاض خاصّ بالرجال والنساء فقط). لم أدر إن كانت مدينتنا تزخر بمراحيض للرجال والنساء والحيوانات. هممت بالدخول، بابه كان مقفلاً. روائح كريهة تنبعث من المبنى.

نظر نحوي أحد المتشرّدين، وهو متمدّد قرب باب المرحاض، كأنّه علم بحالي:

ـ لم يفتح منذ شهور.

أسرعت نحو المنزل متخطّية المارّة بخفّة غير معتادة. الآن فقط أدركت لماذا نسمّي تلك الحفرة التي نفرغ فيها أثقالنا مستراحًا.

سعيدة تتقفّى أثري وسط ازدحام صعب الاختراق، كأنّ عدوتي انتابتها. وصلنا المدينة القديمة، عرجنا على زنقة الجامع الكبير. كان باب المرحاض العمومي والخاص بالرجال مفتوحًا. ولجته، مراحيض صغيرة تحيط بفناء واسع تتوسّطه نافورة وصهريج ماء. تفاجأ الرجال الذين كانوا يستعدّون للوضوء. دمدم بعضهم. حتى من كان متفرغًا لوضوئه تطلّع نحونا بفضول واستغراب.

وأنا أغادر المكان، التقيت الفقيه احنانة داخلاً يتهيّأ للوضوء. تفاجأ عندما علم بحالتي، أطلق العنان لانتقاداته:

سكّان مدينتنا بمئات الآلاف عليهم أن يبرمجوا زمن تبوّلهم. والنساء، فلتتفجّر قنواتهنّ قبل أن يصلن إلى منازلهنّ.

مدينتنا تقف خجولة أمام تضخّم حجم مثانات ساكنيها، فتخفض عينيها حتى لا تشاهدهم وهم يتبوّلون عليها في كل درب ومنعطف يحسبونه غير ظاهر للعيان، ثم تغلق عينيها وأنفها حزنًا وحنقًا على ساكنيها.

تتذكّر تاريخها فتعتلج في صدرها غصّة ومرارة. مدينة شيّدت منذ مئات السنين ليقطنها عشرات المئات. جهّزت بعشرات المراحيض بمعمار بديع. ها هي اليوم رغم كثرة الخطب والخطط لا تشمل ولو مستراحًا واحدًا لائقًا، بل تقف مرغمة شاهدة مع ساكنيها، على خراب مراحيضها القديمة.

لاحق كلام الفقيه مسامعي، وأنا أنصرف على عجل:

ـ مسيورو المدينة لا يعنيهم انتفاخ مثانات أهلها، بقدر ما ينشغلون بانتفاخ بطونهم وجيوبهم، وحدقات أعينهم تبحث بلهفة محمومة عن صفقات جديدة.

صفقات فوق صفقات، صفقات تحت صفقات، ونحن وأهل حيّنا ومدينتنا نصفّق لصفقاتهم ونصفّق لتصفيقهم، حتى تكلّ أيادينا وينتفخ صفاق جلودنا وأمعائنا.

* * *

اليوم يوم تبوّل، وليله كان بولاً متقطّعًا. أقطع نومي وأتوجّه مرارًا إلى المرحاض. قضيت اللّيلة أصارع الكوابيس. لم أدخل في سبات طويل إلاّ عند اقتراب الفجر، لأرحل في دنيا حلم مزعج، أعدو في الشارع الكبير وسائلي يكاد ينفلت منّي، وأنا أحاول منعه، لأجد نفسي بين مئات من النساء في مثل حالتي يهرولن في جزع.

شرطي السير غير عابئ بنا. يوقف النساء المهرولات وقتًا أطول من المعتاد ليسمح للسيّارات بالمرور. يشعّ ضوء أحمر من لافتة كبيرة معلّقة:

ممنوع التبولّ، على زوّار وزائرات مدينة تطوان أن ينزعوا مثانتهم عند مدخل المدينة، أو أن يحملوا معهم مباولهم.

فجأة، وكأنّ فرجًا حلّ بالمدينة، يشعّ ضوء أخضر فوق لافتة كتب عليها:

يسمح للنساء بالتبوّل. على الرجال أن يغمضوا أعينهم. كل من ضبط يحاول استراق النظر إليهنّ تعرض عورته على أهل المدينة.

والنساء تتبوّل، كان كل الرّجال ممتثلين للأوامر، إلاّ مجموعة واقفة فوق منصّة ببذلات روميّة وربطات عنق، من بينهم جميل. كانوا كمجسّمات للفضيحة، مشرّعين عيونهم يحدّقون دون وقار أو حشمة. دقّقت النظر في أوجههم، كأنّهم أشباه خنازير، أو الذين تحدّث عنهم الفقيه احنانة، بدؤوا يتقدّمون نحوي وشرارة أعينهم ترعبني.

أفقت من كابوسي، لأجد نفسي أفرغ بارتياح كل الشوائب التي تعلّقت بجسدي، وبقلبي وبعقلي. وجدت نفسي أتبوّل في سريري.

سرير ليلة الخميس

للدار الكبيرة الموغلة في الرذيلة بعض الفضائل على سكّان حيّنا. فمخافة أن يجد أهل الحيّ بناتهنّ من بين ضيفات هذه الدار، أو في دور مشابهة في مدن أخرى، يعجّلون بتزويجهنّ، فتتوالد حفلات الزفاف بحيّنا بوتيرة تناسل الفئران. زواج في فصل الصيف وزواج في فصل الشتاء، زواج في أيّام الربيع أو في ليالي الخريف.

ولم يكن السكان ينتظرون عادة يوم عطلة لإقامة الفرح، لكنهم غالبا ما يفضلون ليلة الخميس.

يلعن سرطحا أصحاب كل منزل أقاموا حفلا ولم يدعوه. ويشتم كل من دعاه ولم يقم له مأدبة تليق بمقامه. ولا يفتر عن حثّ كل من يلتقي به على الزواج مرّة أولى وثانية.

جيراننا يتلبّسهم هاجس تزويج بناتهم في سنّ مبكرة، ليس تحاشيًا للعنة الدار الكبيرة فقط، بل خوفًا على بناتهم من البوار. ما أن تصبح الطفلة يافعة ويفصح شخص عن رغبته في أن يتأهّل حتى تتهافت عائلة المخطوبة استعدادًا لليلة الخميس، مخافة أن تبقى البنت بائرة ويجفّ عودها. وكم يبدأ بوار الفتيات باكرًا في حيّنا المنهوك ببواره الشامل.

كانت الطنطانيّة أوّل من نبّهتني إلى أنّني صرت في سنّ الزواج. جسدي بالكاد أعلن نضح أنوثتي. لكن شهادتها كانت كفيلة بأن يدعوني سكّان حارتنا لحضور حفلات أعراسهم والتعرّف على دنيا الزواج.

عقد القران يبدأ في حيّنا بإحياء ليلة نقش الحنّاء على يدي وقدمي العروسة. يوضع إناء به عجين حنّاء تتوسّطه بيضة. فتقوم الماشطة بأخذ العجين من حواشي الطست وتزويق أطراف العروس دون المساس بالبيضة. طقس يحيلني إلى وصيّة مما زاهية بالحفاظ على بيضتي إلى غاية يوم زفافي.

بعد ليلة الحناء، يشرع في الاحتفال بالليلة الكبرى. ليلة يتمّ فيها تزيين العروس ونقلها في هودج خشبي أحمر أخضر مزيّن بقبّة، محمول بالأيادي إلى بيت زوجها.

وليلة الدخلة، عادة ما يكون العريس خجولاً قلقًا، يستقرئ ما يدور في خلد الحاضرين الحفل، يخال أنّهم يتتبّعون حركاته وينتظرون لحظة دخوله على عروسه وإثبات فحولته.

بيد أنّ لِيُوزْ لم يكن وجلاً ليلة خميسه. كان يزهو في جلبابه الأبيض، بسنّيه الذهبيّتين اللامعتين من طرفي فمه، حين تنفرج شفتاه وهو يبتسم، أو حين يتهلّل وجهه فرحًا وهو يرحّب بالمدعوين.

لم تظهر عليه علامات ارتباك أو خجل، رغم أنّه جدّ، له أحفاد من بناته، والعروس يافعة تقترب من البلوغ. كان يلحّ على الحاضرين أن لا يغادروا الحفل قبل تناول العشاء.

طناجر كبيرة أعدّت لطهي لحوم أتى بها من متاجر الجزّارة التي يمتلك عددًا منها بالمدينة، بعدما لم يكن في بداية حياته سوى ممتهن للذبح السرّي، يبيع لحمًا فوق طاولة بساحة السوق السفلي، لا أحد يعلم من أين يأتي به. ضجّة كان قد أثارها يومًا الفقيه احنانة عن مصدر ذلك اللحم، حيث أكّد أنّه باغت يومًا ليور يسلخ كلبًا في خندق المقبرة. على إثر هذا الخبر اختفى ليور عن السوق شهورًا، قبل أن يعود ليعرض بضاعته من جديد، وليصبح بعد ذلك بسنوات ملاّكًا لعشرات دكاكين الجزارة بالمدينة ونواحيها. ولم يعرف سكّان الحيّ ولا سكّان المدينة الطريقة التي اغتنى بها في هذه السرعة.

طيلة الليل لم يتوقّف تقديم الشاي للمدعويين، مصحوبًا بأطباق حلويات، أصرّ العريس على أن تصنع من اللّوز المطحون. وكان سرطحا حاضرًا، وهو من أقنع والدي ثوريّة بقبول طلب ليور يد ابنتهم. لم يوقف مدّ يديه إلى الأطباق إلاّ بعد أن أصبح متخمًا يكاد يختنق من كثرة ما سرط من لحوم وحلويات دون مضغ. ليلة لم يكن لينساها، فقد أصبح يؤرّخ، في أحاديثه وخرافاته، بما قبل وما بعد عرس ليور.

حارتنا لم تكن عرفت من قبل عرسًا ببذخ مماثل. من بين المدعوّين حضر غرباء يحملون سمات وجاهة غير مألوفة لدينا. ما أن يقبلوا على باب منزل الحفل حتى يستقبلهم ليور بحرارة، ويجلسهم في أماكن مختارة على مقربة من الجوق العازف.

لأوّل مرّة يقف حرّاس أمن بباب منزل في حيّنا. فلم يجرؤ

أحد من أصحاب الفتوّة والصعلكة على خلق بلبلة تعكّر جوّ الفرح، كما دأبوا يفعلون كلّما ضرب طبل، إيذانًا ببدء حفلة عرس. لكن فظاظتهم وعنجهيّتهم تخبو وتنطفئ بمجرّد وصولهم أمام باب الحفل. ينحنون في تذلّل، يحيّون رجلي الأمن بلباقة مبالغ فيها، لا تنمّ عن احترام، بل عن خوف جاثم على صدورهم.

هو ليور يختال أمام الحاضرين في تيه، يتمايل في حركاته بأبّهة طاووس مثقل بريشه. وبين الحين والآخر يدعك أصابع يديه، كأنّه في عجلة من أمر.

تضاعفت نشوته حين اقتربت أصداء موسيقى الفرقة العازفة، وهي تصاحب هودج العروس القادم من بيت أبيها. تقدّم نحو الباب مطوّحًا برجله اليسرى، يتداخل حينها بطنه فتتمايل حدبته، كأنّها تتهيّأ لتقفز من مكانها فوق ظهره، لتسقط خلف عنقه، قبل أن يأتي برجله اليمنى مكملاً خطوته.

بدا التعب واضحًا على محياه. لكن ضحكته القويّة لم تفارقه. وليور الأحول لم تكن قهقهته تفارقه حتى عندما كانت مخطوبته ثوريّة تصدّه وتنهره.

كان يتعب حدّ الإنهاك، وهو يصعد العدد الكبير من درجات زقاقنا، ليصل إلى منزل خطيبته مرهقًا من تعثّر رجله العوجاء، ومن تقدّم عمره وثقل حدبته على ظهره، وثقل الهدايا المحمّل بها. لمرّات عديدة وجدته يطرق باب منزل خطيبته، يلهث في عياء، بينما هي لا ترغب في استقباله. ومن غير اكتراث بمن

حوله، يشرع في التغزّل بها أمام الباب المقفل، بكلام غزل يثير الكثير من السخرية.

كانت ثوريّة تصرّ على عدم استقباله، إلى أن يأتي أبوها، أو أمّها، فينفتح الباب على مصراعيه، ترحيبًا بليور، وبما يحمله من رزم.

ترفض خطيبته أن تلقاه. تترجّاها أمّها أن تستقبله، ثم يرغمها والدها، فتجلس قربه مطأطئة الرأس، مشمئزّة من تودّده. يحاول أن يقترب منها، تبتعد عنه. يطلق ضحكته، تكشّر. تصدّه بغضب واضح، ثم تثور في وجهه:

ـ لا أريدك، لن أتزوّجك، لا أحبّك.

يقهقه، غير مبال، يجيب:

ـ مادمت أحبّك، سوف تحبّينني.

تلطّف من حدّة كلامها:

ـ عد يا ليور إلى زوجتيك وأولادك، ابتعد عنّي.

يبتسم في لامبالاة، تغتاظ ثوريّة وتخاطبه بجفاء:

ـ أيّها الأحول، لن أتزوّجك ولو كنت الرجل الوحيد في الدنيا. إنّني أعدك بذلك.

دون أن تهجره سخريته يردّ ضاحكًا:

ـ لقد خطبتك من والدك ووافق، أنا أتفاهم مع الرجال وليس مع النساء.

تخور قوّة صدها، وبصوت يخرج من حنجرة جفّ ريقها:

ـ أرجوك يا ليور، دعني لحالي، كن رجلاً.

يضمّ حاجبيه إلى عينيه. يقترب من جسدها البضّ الطري، يمدّ يده نحوها ثم يخاطبها:

ـ من هو أحسن منّي في هذا الحيّ حتى يقطف ثمارك قبلي يا شجيرة التفّاح.

تنفلت منها أعصابها، فيفلت لسانها:

ـ ما أنت إلاّ سالخ جلود الكلاب، ما أنت إلاّ أحول خلقة وخلقًا.

لأوّل مرّة تكتسي وجهه آثار غضب مداهم، يداريها بابتسامة باهتة، ثم يعقب:

ـ لم تبق إلاّ أيّام وأسلخ لك ما أودّ سلخه، وأجعل كل مستقيم لديك أحول!

* * *

وصل هودج العروس. أدخله حاملوه إلى فناء الدار. كثر اللغط. اختلطت أصوات الجوقات الموسيقيّة. لكل فرقة ضجيجها. لجّة ألحان أصبحت منفرة من تخالطها.

ها هي المهرة قد انصاعت، وتمّ حملها لك يا ليور في أبهى حللها. فاشحذ أدواتك جيّدًا، وإن لم تقدر على سلخها، لفرط طراوتها، فاستعن بحدبتك.

نزلت العروس مقطّبة، شاحبة تنشج بصوت خافت. جالت بحدقتيها بين المدعوّين والمدعوّات في فتور.

طوقها مرصّع بعناقيد من خيوط مثقلة بحبّات من الجوهر الأبيض. يعلو رأسها تاج ذهبي تتلألأ أحجاره. لكنّ التزيين المبالغ فيه لم يهبها سرّ العروس الذي تنتظره النسوة الحاضرات المتطلّعات إليها بفضول زائد.

أجلست الماشطة ثوريّة فوق أريكة قرب العريس وسط الحشد الصاخب. حاولت أن تجعلها تبتسم أمام آلة التصوير. لكنّ النظرة التائهة لعينيها الغائرتين وسط وجهها الذابل، رغم كثرة المساحيق، تميت فيها كل محاولة لإيهام المدعوّين أنّها قادرة على الابتسام.

على غير العادة في حفلات الأعراس، لم تكن نظرات وكلمات النساء الحاضرات تنمّ عن الغيرة أو التحسّر، بل كانت تحمل تلميحات سخرية وتشفّيًا وشفقة. انحنت عليّ سعيدة:

ـ ليت حظّنا يؤاتينا، لكن ليس برجل كالأحول.

تحتدم أصوات الآلات الموسيقيّة، يهبّ ليور واقفًا ينثر أوراقًا ماليّة على أفراد الفرقة العازفة. شباب الحيّ الذين اعتادوا في مثل هذه الحفلات على الرقص، والذي عادة ما يتسبّب في ترويع الحفل، وقفوا متحفّزين للارتماء إلى باحة الدار. غير أنّ الأعين الحارسة لرجلي الأمن كانت قادرة على كبح جماحهم، فاكتفوا بالتمايل على النغمات، وضرب أكفّهم في بعضها. كأنّهم يلتزمون

بما خطّط له ليور، تفاديًا لما يمكن أن يفسد سير حفله.

غير أنّ تَزتزْ أبى أن يظلّ مقتصرًا على الفرجة. باندفاع انسلّ من بين الواقفين وقفز إلى وسط الدار وكأنّه انبعث منه. جمع حواشي سترته الواسعة على خصره النحيل وشرع في اللّف حول نفسه مهتزًّا دون انسجام، متخبّطًا وموهمًا نفسه أنّه يرقص. وقبل أن يطلب ليور من رجلي الأمن منعه من مواصلة خبطه، كانا قد رميا به إلى الخارج.

والعريس لم يسمح ويرخّص بالرقص إلاّ لحمادي زوج الطنطانيّة، حيث بحث عنه بين الحاضرين، ثم دعاه ليشاطره سروره برقصاته المتميّزة. اغتاظت الطنطانيّة، حاولت منعه فلم تفلح.

بانسجام مع الموسقى، شرع حمادي يهتزّ. شيخوخته وقامته الطويلة وجسمه العريض القوي لم تمنعه من أن يتمايل بإتقان، على إيقاعات الموسيقى المعزوفة.

حمل عصاه فوق كتفه، وطفق يتحرّك بشكل مثير. وجهه المائل إلى السواد يتصبّب عرقًا. بإشارة من يده يوقف العازفين ليطلق بنبرة صوته الناعمة زغاريد من حنجرة، كأنّها لم تتعوّد على النطق إلاّ بهذه الطريقة.

سرور الحاضرين بهذا التنشيط تضاعف حين ارتمت الطنطانيّة بجسمها البدين وقامتها القصيرة على زوجها، محاولة منعه وإخراجه من وسط المتفرّجين، وهو يطلب من الحاضرات نجدته

وإبعادها حتى يواصل رقصه وغناءه. فقامت بعض النسوة إليها، وبعد جهد أخرجنها وجعلن حولها مجموعة من الأطفال كطوق مانع.

فجأة، وبإشارة من يده، أوقف حمادي الفرقة العازفة، وأطلق بصوته الأنثويّ المبحوح مقطعًا من أغنية سرعان ما سايره العازفون بنغماتهم:

اللهْ. اللهْ. يا مْوِّي يَا خْنًّا

واللِّي مْرِيضِ وَاشْ يْداوِيه؟

ثم يردّ على تساؤله بمقطع آخر:

تُدَاوِيه شَابَّة صْغِيرَة

وَلاَّ عَازْبَة كِيفْ صَامْتْ رَمْضان

على وقع هذا الموال المهدى من حمادي إلى العريس، يصرخ ليور ويقفز طربًا. وبفرح مهيمن على روحه، انطلق يرقص بجنون، وهو ينثر أوراقًا ماليّة على العازفين وعلى حمادي. بعدها توجّه نحو الجوقة العازفة، وطلب من أفرادها بلهجة آمرة عزف أغنية اليوم ليلة الخميس، ومواصلة عزفها حتى يأمرهم بالتوقّف.

اليَوْمَ لَيْلَـةَ الخْـمِـيـسْ والـفَـرْحَـة عَـنْـدَنَـا في دَارْنا

عْـرُوسَــة وعْــريــسْ مَـرْحـبــا يــا جِـيـرَانْــنـا

لم يكلّ الأحول من ليّ وطيّ جسده على نغمات الأغنية التي أعادت الفرقة عزفها لمرّات عديدة. فصار يخيّل إليّ، وأنا منهكة

من تتبُّع هذه الفرجة والنوم يطوّق أجفاني رغم الصخب، كأنّما أشاهد لعبة كراكيز تتلوّى.

وقف ليور والعرق يصبغ وجهه، وتقدّم نحو العازفين آمرًا:

ـ لن ترحلوا قبل أن تعزفوا لي معزوفة تحيّة الصباح.

عادة ما تنتهي حفلات الأعراس في حارتنا بعد منتصف الليل. وفي صباح الغد تعود الجوقة الموسيقيّة لعزف تحيّة الصباح للعروسين، إشادة بكون قشرة بيضة العروسة كانت سليمة. وبأنّ العريس هو الذي قام بتهشيمها. فتصبح المعزوفة المؤدّاة تهنئة لأهل العروسين، وتوقيعًا لشهادة العذريّة للبنت، وشهادة على فحولة الرجل.

غير أنّ ليور لم يستطع الانتظار حتى الصباح لإعلان فحولته. فهو يرغب في أن يثبت رجولته هذه الليلة لكلّ الحاقدين والحاسدين الحاضرين والغائبين. فطلب من أفراد الجوقة التريّث، ريثما ينزل إليهم بشهادته موقّعة ومختومة.

بوجه كئيب، وسحنة ذابلة، ارتقت ثوريّة السلاليم نحو الطابق العلوي. والماشطة تحمل حواشي فستان العرس المزركش، وزغاريد النساء تتبعها.

ونحن نتهيّأ للانصراف، تسرّبت همهمات صخب غير واضحة، آتية من الطابق الفوقي للمنزل. ثم بدأ طرق على غرفة العروسة. قرع ما فتئ أن احتدّ متبوعًا بالنداء على ثوريّة. تكرّر النداء. لكن لا مجيب. طلب ليور من شابّين مساعدته في فتح الباب، لم يفلحا، فشرعا في تكسيرها.

التفتت سعيدة إليّ، وقد علا وجهها اصفرار:

ـ لقد قتلت ثوريّة نفسها!

سرت هذه الكلمات بسرعة بين الحضور. حلّ فزع مريب على الوجوه. فتحت الباب، كان السرير فارغًا. ثوان بعدها دار ليور على عقبيه في هراع، فاتحًا منفذًا بين الملتفّين حوله بمنكبيه، طالبًا من رجلي الأمن مرافقته.

لقد هربت ثوريّة عبر نافذة البيت المطلّة على درب خلف المنزل. جمعت ما كانت تتزيّن به من حلي وذهب الماشطة، ربطت إزارين مع بعضهما بالسرير، ثم نزلت منفّذة بذلك وعدها الذي وعدت به الأحول، بأن تحرمه من التمتّع بتحيّة الصباح!

ألقيت بنفسي على السرير، طنين أغنية ليلة الخميس يتردّد صفيرًا مزعجًا في طبلة أذني، فأظلّ متقلّبة لساعات، قبل أن تداهمني غفوة وسن تأخذني إلى عالم النوم.

لم يتحمّل ليور الصدمة، هدّته، فقام ببيع كل متاجره في تطوان، ورحل مع عائلته إلى سبتة، فلم نره من يومها.

واستمرّ أطفال الحيّ يجتمعون قرب باب منزل الحفل، حاملين علب قصدير كبيرة. وعندما يتأكّدون من عدم وجود ليور ورجلي الأمن، يشرعون في الضرب على علبهم القصديريّة، محاكين بسخرية رقصة ليور، ومردّدين أغنية ليلة الخميس.

طنين أغنية ليلة الخميس ظلّ لا يفارق مسامعي أيّامًا. يذكّرني بأجواء عرس ثوريّة. حكايتها تثير لديّ الشفقة. أتخيّل أنّها بعد هروبها لن تكون إلاّ قد حلّت بدار كالدار الكبيرة في مدينة أخرى، ما كان يؤلمني.

ما إن كاد يخفت صدى أغنية ليلة الخميس في أذني حتّى وجدت نفسي على موعد معه في حفل زفاف يوم خميس آخر.

في حفل زواج مليكة، التي تقطن بحيّ النوادر، لم تكن الجوقة الموسيقيّة تردّد معزوفة اليوم ليلة الخميس بطلب من العريس أو من أهله، بل كان تكرار عزفها وأدائها يتمّ تلبية لطلب اكريمو الحرضون الذي لم يحضر إلى الحفل إلاّ بعد أن حمل معه عدّة الاحتفال. تلك عادته، يتهيّأ ويحمل معه ما سينشط به الحفل وما سيجعله محطّ أنظار كل المحتفلين.

ما إن بسط الليل قعدته وابتدأت أجواء الاحتفال، حتى أقبل الحرضون محمّلاً بحقيبة سوداء، وضعها أمامه فوق مصطبة مقابل باب منزل الحفل. وقبل أن يقوم بفتحها هرع كل الواقفين هاربين إلى داخل المنزل وأغلقوا الباب. ومن لم يتمكّن من اللحاق بهم ولّى أدباره عبر درجات الحيّ. فتح الحقيبة بتمهّل وأخرج عدّته؛

سيفًا وخناجر. نزع قميصه، وضع خنجرين بأغمدة بين ثنايا سرواله خلف ظهره، ووقف أمام الفرقة العازفة التي لم يتمكّن أفرادها من جمع آلاتهم والفرار. وبدأ احتفاله. أمر العازفين، زمّاران وطبّالان وكُرِيشَة ضارب الصنّاجتين النحاسيّتين، أن يعزفوا له أغنية اليوم ليلة الخميس. كنت مع المتحلّقات حول أحد الشبابيك داخل منزل العروسة، نتفرّج على فظاظة هذا الوغد الذي تحمل عيناه غدرها المجنون. ما إن أنهى أفراد الفرقة عزف الأغنية حتى أمرهم بإشارة من سيفه بإعادة أدائها. لمرّة ثالثة ورابعة وخامسة، أعيد عزف إيقاع الأغنية، لكن عطش الحرضون لرنين ليلة الخميس لم يرتو، فمنع أفراد الفرقة من التوقّف.

بدا العياء واضحًا على أفراد الجوقة. أوداج الزمّارين انتفخت، خدودهما أصبحت كرات حمراء يغشاها لهيب داخلي. أصابعهم كلّت من التحرّك بين فتحات الزمّارات. زناد الضاربيْن على الطبل وأياديهم آلمتْهما. نظرات عيونهما تلتقي بنظرات عيون رفاقهم في توجّس ورهبة ولعنة لهذا الصعلوك المتسلّط.

صعب أن يفتك بكرامتك وغد مجنون وأنت لا تملك قدرة على ردعه.

قربهم يقبع اكُرِيشَة قارعًا صنّاجتيه النحاسيّتين. أسطوانتان مقعّرتان كبيرتا الحجم يتطلّب قرعهما قوّة وجهدًا. عند تهجّي الطبّالين الحروف الأخيرة لأبيات القطعة المعزوفة، كان اكُرِيشَة يضرب الأسطوانتين بعصبيّة وبكلّ قوّته، فيصدر عن تصادمهما دويّ مفرقع، كأنّ له قصّة كراهية مع هذه الحروف، فيحاول

دهسها وسحقها. البسمة الواسعة التي تكسو عادة محياه انطفأت، وغابت سخريته المرحة التي تجعل حضوره محبّبًا لدى المحتفلين.

لم يلقّب اكريشة بهذا الاسم إلاّ لبطنه الكبير الذي يحتوي جسده القصير. وكثيرًا ما سخر سرطحا منه بطريقته الفجّة في التهكّم:

ـ ألم تلاحظ أنّ كرشك قد ركب جسمك، أنزلها.

أثناء النهار كان يعمل حمّالاً، يحمل كل ثقل عجز زملاؤه في المهنة عن حمله. حين يجرّ عربته لم يكن ينادي على المارّة لكي يفسحوا له الطريق، بل يكتفي بامتداد بطنه أمامه لكي يشقّ له السبيل مهما كان الازدحام.

لم نكن نعرف إن كانت ضخامة بطنه هي التي جعلت منه أكولاً نهمًا، أم عشقه المرضي للأكل هو الذي جعل بطنه ضخمًا. ولكي يتمكّن من توفير مدخول زائد وأكل يمكّنه من شحن بطنه، تفرّغ في الليل لإذكاء أجواء الحفلات. فاشتهر بضربته المتميّزة والقويّة للصنّاجات التي يوقف بها كل مقطع موسيقى ليبدأ آخر.

أصبح الراقصون يعتبرونها فاصلة استراحة قصيرة بين وصلة رقص منتهية ووصلة آتية. استراحة يكون على إثرها تزتز، مدمن الرقص في الأعراس، قد أرخى سترته ليرفعها خلف ظهره وينطلق في نط جديد. لكنّه اليوم أوقف خبطه وأرخى سترته وفرّ كقط

مذعور إلى داخل المنزل، حيث احتمى مع الهاربين من خطر الحرضون.

شرع المهاجم في قذف قطع كبيرة من الحجر على الباب، التي بدت وكأنّها تكاد تنخلع من قوّة وقعها، ثم انهال على مزلاجها محاولاً تكسيره. عزف أغنية اليوم ليلة الخميس لم يتوقّف. ولولات النساء وتوسّلاتهن وصراخ رجال عائلة العروس وإطلاق تهديداتهم، كل ذلك لم يفلح في صدّ هذا المعتوه عن غيّه.

لمّا تعذّر عليه كسر الباب ارتمى كقرد مسعور، وشرع يقتلع السلك الكهربائي الطويل المتدلّي فوق الزقاق والمحمّل بعشرات المصابيح الكهربائيّة الملوّنة. يمدّها أصحاب الحفل لإشهار وتزيين حفلاتهم. ألسنة النار التي اندلعت مرفوقة بفرقعات ناتجة عن تلاقي الأسلاك لم تخفه، ولم توقف غطرسته الرعناء. أدار ظهره للعازفين ليتبوّل. غافله أحد الطبّالين وانسلّ محاولاً الفرار. لكن ثقل طبله أعاقه، لحق به الحرضون، أعاده وهو يغرز في جسده نصل سيفه، فبدت آثار دماء متفرّقة فوق بذلته.

حين يحسّ بالتعب يجلس والسيف في يده. ثم يشير بسيفه آمرًا أفراد الجوق العازف بمواصلة ترديد نغمات الأغنية. حاول أحد الزمّارين أن يستريح ويأخذ بعض أنفاسه، لكنّ الحرضون باغته بشكّة من سيفه في وجهه، انسكب الدم فوق خدّه وتسلّل إلى فمه وهو يواصل النفخ في المزمار، والصعلوك المختلّ يواصل تلذّذه المجنون.

لا أحد يعرف من أين أتى الحرضون بكل هذا الشره لإسالة دماء الآخرين؟ من أين رضع هذا الوله الذي لم يفطم منه؟ لكن الكل يعرف عنفه وغدره وسيفه الماضي الذي لا يفارقه، والذي نقش عليه عبارة (الماضي لا يعاد). ولا يدري أحد كيف كان يربط بين الماضي كمرادف لسيفه القاطع وبين الماضي كمفهوم للزمن.

مما زاهية كانت تتحاشى مواجهته. ترى فيها مواجهة خاسرة. لكنّها لو كانت موجودة معنا في الحفل لربما أقنعته بالعدول عن ترويعه.

تسلّل أحد أفراد عائلة العروس عبر السطوح، وصل إلى ديمومة رجال الشرطة، أبلغهم بالتهجّم والتمس مساعدتهم. أخبروه بخطورة المشتكى به، وأنّ عشرات الشكايات قدّمت ضدّه.

لم يحضر الأمن، واستمرّ الحرضون في خبثه. من حين إلى آخر يرفع قنّينة خمر ويسكب منها في فمه. كنت أشاهد في الأفلام أنّ الهدف من شرب الخمر هو البحث عن نشوة ما. لكنّه في حيّنا يولد لدى أمثال هذا السافل نشوة ولذّة الاعتداء على البسطاء من ساكنيه، وكأنّه يتحالف، دون شروط، مع القهر ضدّ هؤلاء الحالمين بسكون في هذا الركن المهمل من مدينتنا. يقرّر بعض الحاضرين الخروج لمواجهته، لكن سرعان ما يتردّدون، خوفًا من انتقامه.

قارب الصبح. والحرضون ما زال يواصل دندنته ورقصه على

إيقاع أغنية اليوم ليلة الخميس، وسيفه في يده. تساءلت:

ـ ما لهذه الأغنية والفواجع بحيّنا؟

بين الألم والانفعال والقهر كان الطبّالان والزمّاران يواصلون عزفهم. هدّ التعب والألم اكريشة، فلم يعد قادرًا على الوقوف من شدّة العناء. لم يتعبه بطنه المتدلّي في انتفاخ أمامه، ولا انحناء ظهره، من كثرة ما حمل من أثقال، لكن أنهكه ما يذوقه هو وأصحابه من خسيس يحمل شرارة متّقدة من خبث ذي جذور في أوصال الأرض.

ما إن دفع اكريشة بكرسي أمامه ليستريح حتى استهدفه الحرضون بوخزة من سيفه في عنقه. عضّ اكريشة بعنف على شفتيه كأنّه يمتصّ ألمه ويمتصّ غضب العالم. شهيقه أصبح بصوت مسموع. ولون بشرته تحوّل إلى احمرار داكن مغلّف بسواد.

غير آبه بدم اكريشة السائل ببطء من عنقه، وبرعونة أكبر، تراجع الحرضون إلى الخلف، ثم قفز راكلاً باب المنزل بقوّة. ركلة أفقدته توازنه، فسقط على الأرض. وهو يحاول الوقوف سمع المحتجزون بمنزل الاحتفال صوت ارتطام غير مألوف أسكت الفرقة الموسيقيّة. شدّة اللطمة جعلت يد أحد الطبّالين تبقى معلّقة في الهواء دون حركة من وقع الدهشة. وقبل أن يدرك الحرضون ما نزل بقوّة على رأسه، كانت لطمة أخرى أشدّ تصدم وجهه.

باعد اكريشة يديه الحاملتين للصنّاجتين النحاسيّتين ما استطاع، ثم جمعهما بكل قوّة ليصدما رأس الحرضون. سقط الوغد، ثم فاجأه بالضربة الثانية، سقط الحرضون مهشّم الرأس، يهرق الدم من أنفه ووجهه.

فتحت الباب. خرجنا نعبّ الهواء بإحساس سجناء يتنسّمون الحرِّيَّة. جمع اكريشة أسطوانتيه، وضعهما في غلافهما، ورحل في صمت وهدوء عن مكان الحفل وعن الحيّ وعن المدينة، لأنّه متأكّد من أنّ ثأر الحرضون، حين يتعافى، سيكون أشرس.

سرير الخنازير

تمّت المداهمة في بداية الليل. دوهمت معها روحي للمرّة الألف. طوّق رجال الشرطة الدار الكبيرة. صادروا محتوى غرفة تستعمل للتخزين. حجزت عشرات الصناديق من قارورات الخمر الرفيع المهرّب من مدينة سبتة، وكمِّيّات مهمّة من أقراص المخدّرات. حاول النينيو، أحد أتباع مما الزاهية، اعتراض طريق رجل أمن بمطواه، جرحه في يده. الشرطي كان أشرس في الردّ، حين باغته بضربات قويّة على وجهه، كسر أسنانه وكبّل يديه. اقتيدت مما الزاهية بهدوء هذه المرّة. ومن أسمّيه أبي تمّ اعتقاله بساحة الفدّان. لست أدري لِمَ لَمْ يصبني الخوف. نادت عليّ مما الزاهية، وسلّمتني مبلغًا من المال.

عدت إلى منزل مما رحمة، انكببت على دراستي ومساعدتها في الأعمال المنزليّة. أحسّ باطمئنان وأنا بالقرب منها، أتذوّق نعمة أن تحيا في هدوء وسط عائلة تحتضنك بحبّ ودفء. إلى أن ظهر ما سيمزّق سكوني وراحتي، كأنّ قدري كتب عليّ فصلاً آخر من آلام جديدة.

عايشة الكحلة، صاحبة فندق وإسطبل الصفارين، لم تنس

عداءها لمما الزاهية. الأعوام التي قضتها في السجن لم تفلح في إطفاء نار الحقد بينهما. كراهية كانت قد نشأت ثم استفحلت بعدما سيطرت عايشة على حصّة من سوق الباغيات، وأصبح فندقها يعجّ بنساء آتيات من مدن بعيدة. ما كان كفيلاً بأن يؤجّج الضغينة بين المرأتين. المناوشات بينهما قديمة، كلّما وصلني صداها أتفاداها أو أتجاهلها. لكن عايشة الكحلة كانت تحدجني مرارًا شزرًا إذا ما التقينا أو التقت عيوننا. استفزّتني يومًا في حمّام الحيّ بكلام فاحش، لم أجبها. شكوتها لمما الزاهية. وبغية إضفاء هيبتها على الحيّ، وحتى يتسنّى لها مواجهة منافستها وتنحيتها، هاجمت مما الزاهية إسطبل غريمتها مع خمسة من أتباعها، مدجّجين بعصي وسيوف. ضربوا كل من اعترض طريقهم، فكّوا عقال الدواب الرابضة في الإسطبل التي كان يحضرها القرويّون محمّلة بمنتوجاتهم. أتلفوا محتويات بعض الغرف، كسروا باب مخزن قارورات الخمور ونهبوه. أصاب الهلع نزلاء الإسطبل، خرجت النسوة المقيمات هاربات، وعايشة لم تكن موجودة.

لم تكن موجودة إلاّ معي، ودون ذنب سوى أنّني أنتمي اضطراريًا إلى هذه الشرذمة.

مما الزاهية في السجن. وأنا في الدار الكبيرة التي أخفى الليل تفاصيلها. الجوّ مطر وبرد، بالكاد ترى رجلاً مارًا في الحيّ، أو امرأة تهرول في اتجاه منزلها.

درج الحيّ، المسلك الوحيد لعابري حاراتنا، تقطعها مياه

المطر هادرة نازلة من أعلى. أحسست بكآبة خفيفة. أطفأت التلفاز، حملت كتبي إلى منزل مما رحمة، فتحت الباب، الرياح تصدّه بقوّة، الدرب مقفول، انعكاسات الأضواء الضعيفة للمصباح الكهربائي المعلّق وسط الدرب تتحرّك بشدّة، انقبضت روحي، وانعكس الجوّ المكفهر داخلي.

أغلقت الباب وأنا أهمّ بالانصراف. أحاطت بي ثلاثة أشباح. بضربة قويّة على وجهي آلمتني، عرفت أنّ الأمر خطير. قبل أن أحاول الإفاقة من الصدمة والصراخ، كانت لصيقة تكمّم فمي وأنا أحملق بعينين اعتراهما الموت. كبّلوا يدي بحبل، وضعوا قبّ جلبابي فوق رأسي، ثم حملوني من ساعدي بالقوّة. آلمتني أياديهم الخشنة، حاولت أن أستغيث وأتخلّص منهم. صفعني أحدهم حتى لمعت أمام عيني بروق. في الزقاق لا أحد يرى ما يحدث أو لا أحد يريد أن يرى.

اقتادوني إلى مدخل باب الجياف، اكتسحني ارتجاف حادّ، زاد من حدّته صوت عايشة، بعدما وقفت قدامي، والسكر باد عليها من كلامها، خاطبتني:

سوف ترى الزاهية من تكون عايشة الكحلة!

توسّلت إليها بنظراتي أستعطفها، وددت أن أقبّل الأرض تحت قدميها، وأن أقول لها: مالي أنا وصراعكما؟

رموا بي في سيّارة انطلقت بسرعة جنونيّة. تحدّث أحد

مختطفي عن غنيمتهم أنا، بكلام فاحش أكّد آخر أنّني ذات جسد مثير، أوصل أحدهم أصابعه إلى جسمي.

في الطريق نزعوا عن رأسي غطاءه. لا شيء حولنا سوى ظلام متناسل وأضواء تبدو بعيدة. ارتفاع الطريق نحو الجبل والأنوار البعيدة وشعاعها الذي جعلته الأمطار يبدو خافتًا حزينًا، جعلني أعرف أن السيارة تصعد سفح جبل بوعنان المقابل لمدينة تطوان في اتجاه قمّته.

بدأت الأضواء تتوارى، أخذت السيّارة في النزول باتجاه اليسار. بعد مدّة عطفنا على طريق ضيّق. من ارتطام السيّارة بالأرض عرفت أنّه طريق غير معبّد. أغصان أشجار ونبات قصب يتدلّى على جوانبه.

بعد مسافة طويلة توقّف سائق السيّارة. خرير قوي لمياه تنساب بالقرب منّا. أنزلني شخصان بالقوّة، وجذبني أحدهم خلفه. نباح كلاب. كنّا نمشي بين أعشاب كثيفة وأشجار عالية. رجلاي تغوصان في الوحل. فقدت فردة من حذائي في التراب المضمّخ بالماء. لم أستطع نزعها من الوحل، بل لم تترك لي الفرصة. وصلنا إلى كوخ دخلناه. وبعد دقائق تبيّن لي أننا نجلس على حافّة نهر مرتيل، وسط مقصبة على ربوة ترتفع عن مجرى المياه لم أستطع تقدير ارتفاعها لكثافة القصب المطلّ على النهر. استرجعت ذاكرتي قصص الخطف والاغتصاب التي لم تكن غريبة عن حيّنا. حوادث كم تكون مفجعة لما يتخلّلها من تعذيب وحشي.

قام أحدهم بإشعال فنار يدوي معلّق قرب الباب، طوّقني برد رهيب، ارتجفت له كل أوصالي. آن أن أصبح عاهرة.

لكل عاهرة حكاية، وها هي حكايتي تبدأ. قد لا يصدّقها أحد. بل من سيعطيني الفرصة لحكيها؟ آن الأوان أن تجفّ أحلامي وأن أكون امرأة ليست كباقي النساء. سأكون مثل عايشة الكحلة صاحبة الفندق، أو شنشانة أو السوطا أو الزاهية...، ندوب في الوجه، عربدة مع مفترشي الطرق، وميضاء لكل راغب.

لو قتلوني لأراحوني. لكن انتقام الكحلة لن يكون الموت، فيا أيّها الموت إن كنت حقًّا رحيمًا فاحضر واحملني من بين هؤلاء السفلة. خذ روحي وليفعلوا بعد ذلك بجسدي ما يشاءون.

شرعت أحدّق في وجوه المحيطين بي، أستجدي في صمت رحمة من بين نظرات أعينهم المنفرة. وضع ذو الأنف الكبير، ووجهٍ فَلَحَتْهُ آلةٌ حادّة، وعينين لا تستقرّان، سكّينًا كبيرةً أمامه.

جلس محترسًا، حذرًا أو خائفًا. عبّ الثاني كؤوسًا من قنّينة خمر، قدّم لي كأسًا، رفضت بإصرار. قال له الآخر:

ـ إنها تريد أن تشرب شيئًا آخر.

مرّر صاحب أنف النسر سكّينه مقلوبة فوق خدّي. كادت أنفاسي تتوقّف من الهلع. لم يجرحني. قال بحدّة:

ـ سأشطب وجهك بهذا السكّين وسأرسم لك خريطة فوقه إن رفضت في المرّة القادمة.

تشريط الوجوه ليس بغريب عن حيّنا وعن مدينتنا. وأنت تمرّ بين الأزقة تطالعك أعداد من وجوه تشوّهها ندوب سكاكين أو شفرات حلاقة. من كثرة انتشارها بين أهل حارتنا ومدينتنا ألفناها. سرنا نعتبر الندبات من ملامح وتقاسيم الوجه. كانت أنفاس فقيهنا احنانة تكاد تنقطع، وهو يصيح ويستنكر أمام محدّثيه:

- كيف يعاقب من يفلح وجهًا بسكّين أو شفرة بشهور قلائل فقط، ليخرج من السجن باحثًا عن وجه آخر يشطبه؟

بعض أولاد حارتنا صاروا يعتبرونها وشمة تتويج، وبعضهم حين لا يجد من يشطب وجهه يقوم هو نفسه بجرحه وجرح أطرافه، ليبين للآخرين أنّه من فرط صعلكته وشراسته قادر على تشريط وجهه وأطرافه، فما بالك بوجوه وأطراف الآخرين.

فاشهد أيّها اللّيل، وأطلّي أيّتها النجوم المتوارية خوفًا وهلعًا ممّا ترينني فيه، واحضري يا أشجار ويا نهر محنتي، واشهدوا على نكبتي. وأنت يا مما الزاهية، ألهذا كنت تهيّئينني؟ ألأصبح مثلك، ومثل الكحلة؟ وأنت يا من ولدتني يا من أنت؟ ألهذا تخلّيت عنّي؟ ألأرث مجدك أم مجدها؟ وقشرة بيضتي التي أمرت بالحفاظ عليها، ها هي ستنكسر على يد أوغاد. مصيبتي أنت وعالمك سببها أيّتها الزاهية. مما رحمة، أين أنت بدعواتك وبركاتك. وأنت يا سي الأمين ها أنا أردّد عليك أنّني كم بقيت حافظة لنفسي.

شملني ارتجاف، حلقي يرتجّ في حنجرتي. أحلامي تحتضر

أمامي وتمتشق نفسي من عزّتها لتحطّ في هذا الوكر الخزي الرجس الدناءة العهر. ماذا أهديتني يا مما الزاهية؟ ماذا دهاك حتى تربطي مصيري بك وبعفنك؟ آن لك أيّها الكوخ أن تتحوّل إلى معبد قذر يقدّم فيك جسدي قربانًا للفساد.

يعبّ المختطفون جرعات متوالية من قنّينة خمر يديرونها بينهم. عريض المنكبين ذو وجه يخاله الناظر إليه منبع تدفّق الشرّ، هو أخ عايشة الكحلة، تأكّدت من ذلك لشدّة الشبه بين ملامحهما. صعلوك خرج لتوّه من السجن، وسمعة خبثه بلغت آذان سكّان المدينة منذ مدّة. التحق بأخته ليحميها ولينفّذ انتقامها.

ممّن؟ منّي أنا؟ لا حول لي، لأكون ضحيّة ولأقدّم هديّة لفجورك أيّتها الأرواح العطنة، كيف لم أستطع أن أصون نفسي؟ بل أنت يا إلهي الذي لم تصنني، أنت. أستغفرك يا رب، أستغفرك يا الله. يا الله. يا..

مشدوهة مصدومة، لا أقدم على حراك، عيناي تنظر ولا أرى. أرفعهما إلى السماء، رحمتك يا الله، رحمتك.

كانوا يواصلون شرب الخمر بسرعة، ويتبادلون التدخين من سبسي الكيف. لم أنطق بكلمة، أتملّى في وجوههم. ثقل يجثم على صدري لهول ما أرى وما أتوقّع. دموع صامتة تنزل حارّة على خدّي دون إحساس بالبكاء.

أحيانًا، في حال الفزع الرهيب، ينسج الخيال صورًا تجنح

بصاحبها إلى تهدئة روعه والترويح عن نفسه. وجدت نفسي أستحضر صورة علي. خلته آتيًا بطلاً من أبطال الأفلام التي شاهدناها، ونحن أطفال، ليواجه الأشرار وينتشلني من أيديهم ويحملني في آمان. لمت نفسي لأنّني أحببت جميلاً، ولم أبادل عليًّا أحاسيسه وحبّه لي. حقًّا كنت أعزّه، لكن قلبي التوّاق إلى ما يؤلمه اختار عشق جميل، وأختار الخسران.

سعال حادّ لأخ الكحلة، وهو يتقدّم نحوي، قطع عليّ تفكيري. شدّني من يدي، حمل لحافًا مهترئًا واتجه نحو حافّة النهر. علمت أنّ وقتي قد حان. لم يتكلّم الآخران، بل طأطآ رأسيهما يباركاني قربانًا لزعيمهما. لم أمانع، تبعته في هدوء. أصبحت تمثالاً يؤمر. أبعدني مسافة أمتار في اتجاه حافة النهر. مدّ اللحاف سريرًا فوق الحشائش. رائحته خنقت عندي حاسّة الشمّ. أجلسني برفق، كانت السماء تحمل الصفاء المؤقّت لما بعد المطر. بين أغصان قصب رحت أحدّق، لا أستطيع الصراخ ولا الكلام ولا البكاء، صوتي انفصل عنّي، وكأنّي أراه يسبح أمامي في الفضاء المظلم.

ماذا عليّ منّي! إن كانت حياتي تكتب صفحاتها العاهرات والقوّادون وأمثال هؤلاء الكلاب الخسيسة الموبوءة، ماذا عليّ. زوبعة من الأحاسيس المتناقضة تدثّرني. بقيت صامتة، هدير النهر أسمعه منسابًا بصوت قويّ، وأنا أجلس قرب خاطفي على حافّة مرتفعة من النهر، تحيط بها أشجار ونبات قصب كثيف.

فسخ قيدي، نزع عنّي جلبابي، عادت إليّ حرّيّتي. تراءى لي

أنّ مختطفي لطيف، ربّما يودّ أن ينهي العمليّة بلطف. ضغط على يدي، كأنّه يجسّ نبض حناني. لو أنّني امتنعت فحتمًا سيمزّقون وجهي وأطرافي بسكاكينهم، ثم يغتصبونني.

نهض، ابتعد قليلاً، ولّى بظهره عنّي وتهيّأ يتبوّل. لحظتها توقّف فكري، ارتجف ذهني. منبّه عارم أيقظني، ليعلن لي فتح باب الموت باستبسال، باب نهاية أقف مواجهة لها بشجاعة السخرية من القدر. أيّها الموت، ها أنا أنتشي بالتقرّب إليك أعانقك، فضمّني إليك.

ولج النداء مسامعي كناقوس داخلي لا يتوقّف، فتحرّك التمثال المكبّل من شدّة الهلع. وماذا ينتظر من تمثال حين تأتيه الحركة؟ سيتحرّك، لن يتوقّف، سيركض وسيرتفع في الهواء بأعلى طاقاته، ستصبح رجلاه قوائم حصان ويداه جناحي طائر، سيتشكّل كالحصان المجنح.

كحصان بأجنحة، وجدت نفسي أنهض، أسرع، أقفز، أرتفع، أطير وأهوي إلى النهر، إلى مياهه الهادرة، معانقة الموت في نشوة لذيذة. صمت صمت. ملكوت صمت. ثم لطمتني برودة المياه، خناجر حادّة تفتح خلايا جسدي لتطأها عنوة. قسوة برد راعف. ارتطام قدمي بأعواد وأحجار قاع النهر، اختناق أنفاسي، وعودتي إلى سطح الماء، رغم أنّي لا أتقن السباحة، جعلني أحسّ أنّني ما زلت أحيا، وأنّني قد رميت بنفسي إلى النهر من مرتفع شاهق بعدما دست أعشابًا وقصبًا وأحجارًا وشجيرات بفردة حذاء.

صراخ تلك الضباع، وهرولتهم مذعورين فوق التلّة، هائجين محاولين القفز ورائي، جعلني أتيقّن أنّني لا أعيش كابوس أحلام مرعب. صاح أحدهم:

ـ لقد قفزت القحبة إلى النهر.

ردّ عليه آخر:

ـ خَلِّي دِينْها تْغْرَق.

لم يردّ على صدى عوائهم سوى كلاب الضواحي.

انزلقت مع تيّار الماء الهادر، محاولة الاقتراب من جرف الوادي، متشبّثة بأغصان الأشجار المتدلّية. كان الظلام مطبقًا لا يمكنني من أن ألتمس الطريق. خوفي من أن يجرفني الماء إلى وسط النهر، حيث العمق كبير، جعلني أحاول السباحة في اتجاه الضفّة. من غصن مدلّى على حافّة الوادي إلى عود حادّ وثاقب، ومن فرع شجرة إلى حجر ناتئ، يدحرجني الماء، أتقلّب ثم أعود، وأتشبّث بالأغصان وبكلّ ما علقت به يداي.

رؤوس قضبان بحدّة السيوف تدمي يدي، وأغصان شجر العلّيق كنصل السكاكين تقطع كل طرف تصادفه من جسدي. زادت سرعة الانسياب وصعوبة التشبّث.

صعب أن تتشبّث بالحياة وأنت تنهار قهريًا.

ذبحة أحد الأعواد قسمت نهدي الأيمن، آلمتني لدرجة كدت أفقد فيها وعيي. وحلّ غمر حلقي فكاد يخنقني. تمالكت، انحنيت على نهدي:

ـ أنْ تمزّقك أعوادُ الشجر وحافّات الصخور أفضلُ من أن تمتدّ إليك أيادي أولئك الضباع القذرة وأفواهُهم.

كان الوحل يغطّيني والآلام تقيم حفلها حول كل أطراف جسدي. بعد ارتعاش شديد شملتني سكينة وأحسست بدفء كاسح، كأنّ الخوف ابتعد منّي خائفًا وراح يتفرّس فيّ.

تركت نفسي تنصاع لانسياب المياه ولدغات وطعنات نبات النهر. أنفاسي تعلو وتنزل في صدري بشدّة، وبريق يسري أمام عيني، يذكّرني أنّني مازلت أقاوم الموت. صدى أصوات خافتة ناعمة تنادي عليّ، تصبّرني. أطياف جنّيّات البحيرة الكبرى لقرية وادي لو تحيط بي. وموّال حزين بصوت المهداويّة الشجيّ يمتدّ حولي متداخلاً مع هدير الماء.

خفّ تدفّق المياه، وخفّ انزلاقي معه. أحسست برجلي تطأ الوحل، غاص نصفي الأسفل، مددت يدي إلى فرع من فروع شجرة الدفلى، وبضغط على الوركين، استطعت أن أنتشل رجلي وباقي الجسد. اتّكأت منهكة على جذع شجرة، نطّت الضفادع من حولي وفوق أطرافي.

دم مختلط بالوحل يغطّي جلدي، أطرافي تنزف دمًا، ملت برأسي على جرح غائر نازف بشدّة في كفّي، قرّبته من فمي، امتصصته، كان الدم دافئًا. هدّني العياء، استسلمت، بدأت أفقد كل إحساس بالحياة، تحت النظرات الخاطفة لأعين الضفادع، وهي تعزف لي بنقيقها المتواصل، ليس نشوة النجاة فقط، بل وروق الانتصار.

اخترق عيني نور الشمس الساطعة، آلام جراحي تفاقمت، رمقت بدويّة على بعد قريب منّي تلوّح في اتجاهي للمارّة. عدت أستلقي منهكة شاردة. مرّ وقت حتى تمكّنت أشعة الشمس من مداهمتي كلّيًا، قبل أن يحملني رجال الإسعاف إلى سيّارة النجدة.

* * *

أدخلت المستشفى. حملتني امرأتان إلى المرحاض، صبّتا عليّ ماءًا باردًا. عضلاتي ترتعش، قطعتا ما تبقّى من ملابسي بمقصّ. ضمّدتا بعض جراحي. ألبست عباءة ووضعت فوق سرير أبيض قذر. ألم وبرد يوخزان عظامي. تمّ حقني، فأخلدت للنوم.

أفقت. ظلام يتراءى خارج الغرفة، أنين بعض المريضات المطروحات فوق أسرّة قبالتي يمنعني من مواصلة النوم. انطلقت في أنين تحوّل إلى شبه استغاثة. مريضة مسنّة مطروحة بقربي نادت على المعالج، لم يأت، لعنته. ناولتني قرصًا من دواء تستعمله، لا أدري مِمّا كانت تعاني، طلبت منها قرصًا آخر. رائحة حارّة للبول تهزّ مناخيري. مرّ عليّ ليل جهنّمي طويل تحوّل فيه أنيني إلى صراخ وزمجرة.

في الصباح انتشلني من رقادي صياح وجلبة، وكأنّنا نصرخ حيث يجب أن نصمت، ونصمت حين يلزم الصراخ. فتحت جفني بثقل. عرفت من بين الحاضرين مما رحمة وسعيدة وبعض الجارات. كنّ يحطن بي وهنّ مفزوعات.

في غرفة ذات نقاء واضح وتلفاز وأغطية نظيفة، كنت أتمدّد. تجلس حولي مما رحمة وسعيدة. تمّ إدخالي مصحّة خاصّة. لم أعد أهذي، وما زلت أئنّ وأتألّم.

مرّت عليّ وأنا في المصحّة أيّام، تحسّنت فيها حالتي. ورغم يقيني أنّه لم يقربني أحد من أولائك الصعاليك، ولّيت وجهي نحو الممرّضة:

ـ أريد شهادة لعذريّتي.

وقف أمامي شاب تعلو محياه ابتسامة مبتذلة، قال لي إنّه يودّ أن يكشف عنّي، سألته:

ـ لم؟

أجابني:

ـ أنا الطبيب.

دون إطالة النظر إليه أجبته بصرامة:

ـ أريد أن تكشف عنّي امرأة.

خرجت من المصحّة أجرّ ذيول صدمتي. الكدمات والجراح قد تشفى. لكن، أيّ بلسم لما يمور داخلي؟ عدت إلى بيت مما رحمة. اعتنت بي سعيدة، لطفها قرّبني منها أكثر. بدأت الجراح تلتئم. وثقب نهدي طال علاجه.

بعد تماثلي للشفاء زرت مما الزاهية في السجن، في بهو منزو تركها الحرّاس تضمّني إليها وتعانقني. أحسست لأوّل مرّة أنّني

أعانقها بدفء. شعرت أنّني أبحث عن سكينة مفقودة، لمت نفسي، لم أكرهها؟ أقسمت باليمين أنّها ستنتقم لي، وأنها لن تحنث بوعدها.

لا يهمّني انتقامها، عدت لمتابعة دراستي، سايرت باقي التلميذات ونجحت.

* * *

حلّت بداية الصيف. اشمئزاز داخلي صار يؤرقني، أصبحت نظراتي تائهة أغلب الأوقات. صرت ساهية مشتّتة، جفاني النوم. الليل أطول من المعتاد، والأيّام رتيبة لا طعم لها. حين اقتراب المغيب تتملّكني رغبة الصعود إلى سطح منزل مما رحمة. كانت رقصات الخطاطيف أجمل ما أشاهده. يروقني متابعة أسرابها وهي تتراقص في السماء، تداخلات وتقاطعات طيرانها يرفّه عنّي. حسدت تلك الطيور، فهي تحيا حياة بهيّة.

غير أنّ التملي في رقصات الخطاطيف لم يفلح في أن يجعلني أتخلّى عن الحزن. نزيف أعماقي لم يتوقّف. الوهن هدّ كل أطرافي. الفتور يقعدني عن الحركة. وما عادت عندي رغبة لا في الأكل ولا في الضحك. دقّات قلبي تزداد سرعة عند كل انزعاج. الخفقان لم يعد كالمعتاد. رغبة البكاء تجتاحني من حين إلى آخر. لم أجد سببًا واضحًا لحزني. بدأت وساوس تطرق فكري، وبشدّة حين يحلّ الظلام. كوابيس يتفنّن عقلي في إخراجها، ثم يجعلني بطلة في التلقّي متحمّلة لكل آلامها. صداع يرافقني، ارتجافات، دوخة، خوف وقلق. حلّ الجزع عليّ من مما رحمة،

وحلّ بي خوف رهيب. خوف من الموت، خوف من الجنون، خوف من الخوف.

ذبلت سحنتي، شحوب اعترى قسمات وجهي ونحول حلّ بجسمي. نصحتني القريبات بالتعجيل بزيارة الأضرحة. ارتأين بعدها أن أتوجّه إلى معالج عارف بملكوت الأمراض المستعصية. دخلت معي إحدى الجارات بعد أن رفضت مما رحمة مرافقتي. سيطر عليّ التردّد في البداية، ثم حكيت له عن واقعة اختطافي، وقفزي إلى النهر في خضمّ اللّيل.

اللّيل والوادي والقفز داخل الماء... تمتم المعالج بأشياء غير واضحة، وانطلق يفسّر بلغة قريبة من الزجل أنّ حالتي مستعصية، لأنّها تتعلّق بعشقي من طرف أمير من أمراء الجنّ اسمه بُوشْنْديلْ، وهو الحفيد الأصغر المدلّل لملك جنّ يدعى جَنْكُورْ. عشقني بعد أن أفزعته بقفزتي وسط النهر وهو نائم مع أبنائه، ولولا حبّه لي لكنت من الهالكات. ها أنا المحظوظة معشوقة أمير، ها أنا بطلة لحكاية من حكايات ألف ليلة وليلة. فانهضي أيّتها العليلة، آن لك أن تشفي بعدما أصبحت معشوقة أمير، ولو كان من الجنّ.

ثم أردف المعالج قائلاً:

ـ واعلمي أنّ الأمير بُوشْنْديلْ يسكن في وادي اللّيل، يضيء ليله بلا نار ولا قنديل، يشفي كل مريض وعليل، غير شحيح ولا بخيل.

لا أدري لم انفضّ عنّي انبهاري، كاد أن يغلبني الضحك رغم تعبي. ذكّرتني طريقة إلقائه بكلام سلطانة بنت الكابران صاحبة لعبة الجورنال. ناولني بخورًا وحجابًا، وطلب من مرافقتي أن تقيم لي ليلة محاباة للأمير بوشنديل، الذي أصبح عاشقًا ولهًا بي. ليلة تحييها فرقة طرقيّة مختصّة، على أن تكون الهديّة المقدّمة في اللّيلة تيسًا في كامل سواده.

ليلة المحاباة وعقد الصلح، بعد أن قمت بإفزاع الأمير وأولاده وهم نيام في قاع النهر، لم تحضرها مما رحمة بعد أن منعها سي الأمين. توجّهت أنا وسعيدة وبعض الجارات إلى منزل سيّدة بزنقة المطمورة، تقام فيه مثل هذه الطقوس.

نسوة جالسات حول وقبالة الرجال المنشدين. مجمر مملوء بفحم مشتعل وإبريق نحاس يغلي ماؤه. كهول وفتيان يتبادلون بينهم تدخين الكيف في جلسات مثيرة للشبهات. كانت الفرقة العازفة تؤدّي وصلات موسيقيّة تهزّ نغماتها الحاضرين وتهزّني. موسيقاها تخاطب مباشرة أعماقي. بين الفينة والأخرى ترتمي إحدى الحاضرات إلى فناء المنزل الذي تحوّل إلى حلبة الرقص والجذبة. يسترسل أفراد الفرقة في الضرب على الطبل والنفخ في المزمار، فتهتزّ أجساد النساء والرجال نازلة صاعدة مع النغمات. صيحات ونداءات واستغاثات بأسماء الأولياء وشيوخ الطريقة وأسماء غير واضحة. نساء يفقدن وعيهن ويسقطن منهكات ذابلات كأوراق شجر التين في الخريف. إحداهنّ وقعت أرضًا فتعرّت فخذاها لدرجة الإثارة. بعدها، قام مقدّم الفرقة بخطوات

حول جسدها، وبعد قراءته لبعض التعاويذ، عادت لوعيها مجهدة ومتعبة.

شعور نتعرّى وتتدلّى فوق رؤوس تهتزّ مسايرة ضربات آلة الهجهوج. رؤوس تنتف وملابس تمزّق. ضرب بالأيادي على الصدور، تفريغ للذّات من ثقلها، ومعاقبة لهذه الذّات المُتْعَبة والمُتْعِبة، وبكاء من المعلوم والمجهول للمجهول.

اهتزّت جوارحي، ضربات الموسيقى كانت نفّاذة، وطأت روحي بعنف، فجعلتها تهيم مع تلك النغمات الأخّاذة الملفوفة بحزن مكتوم.

أجواء صاخبة، غناء وهياج، ونساء يلطمن وجوههنّ ثم يفقدن وعيهن، وعندما يفقن يعدن إلى التحضير من أجل فقدان الوعي من جديد. الرجال متأهّبون نسورًا تتهيّأ للانقضاض على فريسة هدّتها محاولات المقاومة. بعضهم يكتفي بتقليب عينيه بين الحاضرات تنقيبًا عن امرأة تستهويه. والأكثر شطارة يقفز إلى الوسط رافعًا بتلابيب عباءته التي يختلف لونها حسب الرقصة والقصيدة المؤدّاة مسايرة لطقس المحاباة، ثم ينطلق في وصلته متفنّنًا في أداء رقصته ليدخل في جذبته، محاولاً إثارة وجلب اهتمام إحدى الحاضرات. جذبة قد تنتهي بخلوة في أحد أركان الدار مع إحداهنّ. غزتني بإلحاح عيون أحد الحاضرين، نظراته القويّة والمثبّتة تجاهي جعلتني أتخيّله إنسانًا استقرّ الخبث في عينيه وروحه.

انسللنا أنا وسعيدة في سكون، صعدنا إلى منزل مما رحمة،

حيث نمت ليلتها نومًا متقطّعًا. لم تتحسّن حالتي، أصبح الخوف يسيطر عليّ أكثر، تولّدت لديّ كآبة قويّة، توجّهت إلى مما رحمة:

ـ خذيني إلى الطبيب.

أمام شخص أشعث، بابتسامة ودودة تستقبلك بلطف جلست. حكيت له بسرعة وارتجال ما ألمّ بي وما أحسّه. وبطريقة لطيفة في الحديث جعلني أحكي له عن نفسي وحياتي وعن ليلة اختطافي، وعن مرضي. ردّ عليّ مبتسمًا، بعد سرده للأسباب التي قد تكون أدّت بي إلى ما أنا عليه:

ـ من يخاف أن يجنّ يكون قد وضع لنفسه حصانة ضدّ الجنون. والحياة خبرات أقصاها تعطينا قوّة جديدة. لا تيأسي، إيّاك أن تتخلّي عن دراستك.

قلت له:

ـ أريد أن أخضع لتحليل نفسي.

ابتسم:

ـ لا حاجة في ذلك.

سألته:

ـ متى أعود لجلسة أخرى؟

ـ لا، لا تعودي ستشفين قريبًا. واظبي على الصلاة.

طلبت منّي مما رحمة مرافقتها إلى قريتها مَرْجَ الْحَجَلْ. قالت لي إنّ موسم قطف سنابل الذرة قد حان، وأنّ عليها التوجّه إلى مدشرها لمساعدة أخيها علي في الجني. وجدتها فرصة للترويح عن نفسي من كدرها.

بعد كيلومترات من مدينة الزِّنْكُونْ الساحليّة وصلنا القرية. عدد قليل من المنازل القرويّة تقبع فوق تلال متباعدة عن بعضها، تشرف على حقول واسعة غير خصبة. سنابل الذرة تغطّي الأفدنة المظلّلة ببعض الأشجار الغابويّة.

لأوّل مرّة أزور عليًّا في قريته. نشيط لا يتوقّف عن العمل، يشتغل اليوم كلّه دون كلل. فالأرض جدباء، صعبة الاستصلاح، وهو يحاول ترويضها شبرًا شبرًا، يزيح قطع الحجارة، يقتلع الشجيرات، ويحفر السواقي. يستهلك طاقاته شهورًا ليستصلح قطعة أرض صغيرة ويحرثها علّها تجود عليه وعلى عائلته بعطاء. وكأنّ الأرض تعانده فيعاندها. يزداد صلابة، فتستمرّ في صدّها لجهده، لا تبوح بسرّها له. ويظلّ هو قنوعًا بقدره يواجه قساوة التربة التي احتضنته ويسامر أقرانه في اللّيل في انتظار يوم عمل جديد.

يحلّ موسم حماية أغصان الذرة من عوث فساد الخنازير البرِّيَّة، خنازير تتحالف مع بخل التربة وجفائها ضدّ أهل القرية. عمل مضن يتواصل شهورًا حتى تتنوّر السنبلة. تبدأ بحرث أرض لا تعد تربتها بغلّة وافرة، حرث يجعل يدي ورجلي علي تنفلح قبل انفلاح التربة، لتأتي عمليّة الزرع وحراسة البذور من الطيور، وانتظار موسم مناخي موات.

يكتمل الموسم، وتعطي السنابل حبًّا يصنع منه خبز صلب صعب الابتلاع، يصلح لإطعام الدجاج أكثر ممّا يصلح لصنع الخبز.

تعب كي تكبر السنبلة، تنمو وتنضج حتى يحين قطفها. ولكن قاطفًا غريبا يكون في انتظار تفتّحها، فيبدأ السجال. شباب قضوا شهورًا في تهيئ الأرض وانتظار الغلّة، وخنازير برِّيَّة يستهويها قضم تلك النبتة. تبدأ الحراسة لعدّة أيّام. تختار الأماكن فوق ربوات مرتفعة أو فوق الأشجار الغابويّة القريبة من الأفدنة. يصنع علي سريره فوق شجرة العرعار، شجرة تعوّدت عليه وتعوّد عليها منذ يفاعته. يعتليها ويتمدّد فوق سريره بين فروعها مسترخيًا.

سرير من أغصان وحبال، مشدود إلى الفروع السميكة للشجرة. يفرشه بأوراق البردي وحشائش. يغطّيه بجلباب صوفي، ثم يسترخي عليه في رقاد مخمليّ. حول الشجرة تحوم كلبته الرقطاء لويزة، وعلى بعد منه تقف بغلته الشابّة الشهباء.

عند حلولنا بالقرية لم تكن تفصلنا عن موعد جني سنابل الذرة إلاّ أيّام قلائل. حين ينتشر الظلام، يتناول علي عشاءه على

عجل، ثم يتوجّه لنوبة الحراسة. يحلو لي كثيرًا أن أقف على حافّة التلّ وأتابعه بنظري وهو ينزل بين الأشجار، أمدّ بصري فتمتدّ أمامي مساحات شاسعة من أراض وغابات وتلال في منظر خلاّب. نور القمر يزيد المشهد بهاء، فتنحني نفسي أمامه إجلالاً وتعانق روحي السماء. أستنشق نعمة ذاك الصفاء في روق وانتشاء.

هديل اليمام نعيب البوم صهيل الأحصنة خوار البقر رنين حشرات اللّيل عواء الذئاب وبنات آوى ارتطام أجسام الأيائل بمياه النهر في هدوء خشخشة أوراق الشجر والأعشاب. . ، فتعيش نشوة انتعاش عارمة.

خدر يعتريني من فرط هذا التوزيع البهيّ. أحدّق في السماء، لوحة سوداء لا قرار ولا نهاية لها مرصّعة بلآلئ تتلألأ من بعيد. انفلات شهب لامعة من مكامنها في سرعة خاطفة، فأسيح وراءها بعيني بعيدًا بعيدًا، في هذا الفضاء المترامي الأخّاذ الرهيب.

بدر مكتمل ينشر برفق وهجه على الأرض، وغفوة تداعبني. تنبّهت لصفير حادّ طويل متواصل ومتكرّر قادم من جهات مختلفة. كان الصفير لشباب القرى القائمين بحراسة الفدادين، وهو إعلام بأنّ الخنازير البرّيّة قد أتت أو آتية في الطريق. خرجت ومما رحمة، وقفنا فوق التلّ متطلّعتان لما سيحدث. نزل علي من مرقده، هيّأ نفسه، صفّارة وصفيحة كبيرة من القصدير لإثارة الضجيج، وأغصان شجر يابسة تدهن بالغاز وتشعل بالنار لإرهاب الخنازير في حال هجومها. مقلع وهراوة تصنع من جذر إحدى

الشجيرات، يشذّب ويحتفظ له برأس مدبّب ومقبض رطب الملمس.

الغبار يتكوّم على مسافة من أعيننا. الكلبة لويزة تقفز وتنطّ وتدور حول علي مكشّرة. أذنا الشهباء واقفتان وحوافرها تدقّ الأرض في قلق. اقتربت الجلبة، تعالى صياح أقران علي، وارتفع نباح الكلاب وخوار البهائم. أفزعني ما رأيته. مجموعة من الخنازير تدكّ الأرض المحروثة، وتسقط سنابل الذرة تحت قوائمها، كأنّما تقوم بعمليّة درس قبل أوانه. انزعجت مما رحمة بشدّة، فقد اعتادت على مشاهدة الخنازير وهي تتسلّل في وحدات إلى الأراضي المزروعة. لكن، أن تهجم الحيوانات دفعة واحدة، فهذا ما روّعها.

بدأ علي يقرع علبة القصدير بشدّة، ويصرخ بكل ما أوتي من قوّة. لم تعره الخنازير اهتمامًا، تتقدّم أكثر كأنّها مأمورة. خنازير نجسة آتية من مهبّ ريح أهوج قذف بها إلى التربة المحروثة، لتعيث فسادها كما يحلو لها، هازئة من صرخات وصياح علي وأصحابه، محقرة قوّة زنادهم التي طوّعت هذه الأرض بعد عناء، إلى أن أثمرت السنابل.

يحاول علي هشّ الخنازير بأغصان تحمل ألسنة النار، لم يفلح في تخويفها، الملعونة النجسة تتنحّى عن لهيبها وتتوجّه إلى رفس وقضم سنابل الذرة اليانعة، كأنّ هذه الأشكال القذرة حملت معها جوعها من السماء.

في هراع، دخلت مما رحمة إلى الزريبة وارتمت على مذراة،

ثم ناولتني مذراة أخرى. لكن كيف ستنفع مذار في مواجهة الخنازير؟ كنّا نبعد عن الحقل بمسافة غير قصيرة.

تركض مما رحمة وتصرخ وأنا خلفها، عباءتها تعوقها عن الجري، سقطت أرضًا، أخذت بيدها. شرعت أشاركها الصياح بأصوات غليظة لعلّنا نخيف بها الحيوانات المهاجمة.

كلاب زملاء علي في الحراسة وقفت بعد أن كلّت، نابحة عن بعد، محيطة بالخنازير. وكلبة علي الرقطاء تنطّ في كل اتجاه، تعوي ترتعد وتهجم بكل عنف في وجوه الخنازير التي لم تتوقّف، وسنابل الذرة تهوي تباعًا. وبدأت نفسي تتهاوى معها.

قوائم الخنازير تدكّ سنابل الذرة المتهاوية. جرى خنزير في اتجاه الشهباء، جريه كان اندفاع رصاصة، أنيابه تسبقه وهو يستهدف بطن الشهباء. خدر شلّني، تيّار يشدّني للسقوط أرضًا. صراخي صار مبحوحًا.

للشهباء ارتباط متين بعلي. ارتبطت به منذ ولادتها، ترعرعت تحت عينيه، يطعمها ويسقيها كأنّها أخته الصغيرة. طيلة فترة الترويض روّضها بكل حنو، حتى تمكّن من اعتلاء ظهرها. وها هي الآن مستهدفة بأنياب هذا النجس. وهو الحاضر الرائي لهذه الفجيعة. فانفجع وتحمّل يا علي، تحمّل فقدان ما أجهدت نفسك لأجله وارتبطت به. تحمّل قتل الشهباء بوحشيّة أمام عينيك.

بقوّة جذب صاعقة، وإحساس بخطر داهم، اقتلعت البغلة وتدها من الأرض. بخفّة مهرة شابّة، وحبًّا وتشبّثًا بالحياة تنحّت

الشهباء بسرعة عن ضربة الخنزير، ليتعثّر ويسقط أرضًا، قبل أن ينهض استعدادًا لإعادة الهجوم.

علي، كأنّما يتنبّه من سبات عميق، يهرع نحوها، ارتمى على ظهرها، وهراوته في يده، وانطلق بها مسرعًا يحاول تخليصها.

إن كانت السنابل قد سحقت فحاول يا علي إنقاذ ما تبقّى من الجذور. حاول إنقاذ الشهباء.

أعنه يا الله وألهمه الشجاعة.

وأنت أيّتها الشهباء جربّي حظّك من عشق الحياة. لا تخافي، فما الخنازير إلاّ حيوانات بليدة نجسة.

انطلق علي على ظهر الشهباء الأملط بسرعة الفارس المتمرّس. الكلبة تتبعه، والزبد يعلو شدقيها من شدّة التعب. نباحها الجنائزي يمخر عباب السماء ناعية به هذه اللحظة، معبّرة عن إحساس بغبن كاسح في تحمّل هزيمة وسط معركة غير متكافئة.

لم يكد علي يبتعد إلاّ قليلا، ومع بداية امتداد الغابة، وسط منعرج يؤدّي إلى تلّ مرتفع، حتى داهمه وقع حوافر الخنزير. الملعون يتبعه كأنّ بينهما ثأرًا لا يغتفر. اقترب الغبار المتصاعد من الأرض الصلبة وكأنّه ينفث من أداة حفر حادّة تخترق قرارها. لكز علي البغلة بعنف لعلّها تزيد من سرعتها. وواجهها ارتفاع التلّ. ضربها، ربما كانت أوّل مرّة يهوي عليها بشدّة وعنف. بدا التعب عليها.

لابدّ له أن يقفز من فوق ظهرها ليخفّف عنها ثقل جسده. ارتمى بخفّة على الأرض. توقّفت الشهباء، أعاد ضربها فلم تتحرّك، كأنّها ترفض أن تتركه وحيدًا. لكزها بكل قوّته بمقبض الهراوة، انطلقت راكضة.

أنا ومما رحمة لا زلنا بعيدتين رغم هرولتنا. تتعثّر أرجلنا في الحجارة، نسقط أرضًا ثم ننتصب واقفتين. جراح وآلام أطرافنا لم تثننا عن محاولة اللحاق بعلي. لم يعد يفصلنا عنه إلاّ خندق غير عميق.

وقف علي يواجه الخنزير. لا يحمل من عدّة الدفاع سوى هراوة. سلاح لن يجديه.

ـ وليكن، فلابدّ أن تقاوم. لن يجديك هروبك.. لن يجديك.

الحيوان يسترجع أنفاسه من أعماقه ويحدّق في علي بنظرة إنسان يتوحّش. شدّ نظر مما رحمة سائل لزج أسود يتدفّق من ظهره، ملطّخًا نصف جسمه. صرخت بكل قواها:

ـ انتبه يا علي، فالخنزير مصاب بالرصاص.

وجهًا لوجه يقفان، علي خلف شجيرة صغيرة بالكاد تغطّي فخذيه، والخنزير يخنزر فيه ويستعدّ للضربة القاضية.

أمعنت النظر، تتبّعت بعيني سريان السائل اللزج، فوقع نظري على ثقب غائر في ظهره. كان ثقب رصاصة ينساب الدم من جوانبه، تجمّدت عروقي. الخنزير مصاب برصاصة صيّاد. والخنزير الذي يجرح بالرصاص ولا يقتل يصيبه هيجان أعمى من

شدّة الألم، فيهاجم ويمزّق بأنيابه كل من صادف في طريقه.

رجلاي تخونانني وتعجزان عن حمل جسدي. رعشة خوف شديد تسري في كل أرجائي.

وأنت يا علي، ها أنت الضحيّة. لملم شتاتك واقهر خوفك واستجد رحمة من السماء. لا مفرّ لك يا علي، الموت أمامك يجثو نحوك، وعين هذا النجس تناديك لمبارزة فرضت عليك. مواجهة غير متكافئة، ولا خيار لك. إمّا أن تحاول الهرب، ولن تفلح، لأنّ الحيوان سيهاجمك من الخلف، وإمّا أن تواجه من الأمام ولن تفلح، لأنّ عدوك أعتى منك. خوفًا من أن يباغتك، ها أنت لا تستطيع حتى رفع عينيك إلى السماء استجداء للطف في ما جرى به قدرك. تقدّم يا علي، استنهض مكنوناتك الراكدة، استلهمها وواجهه. لا تمت ميتة الأنذال. فها هو الوحش يستعيد أنفاسه وخواره يهزّك، ها هو يتهيأ للوثبة الأخيرة عليك.

لن ينفعك صراخي ولا عويل أختك، نحن الواقفتان قدّام الخندق الذي يمنعنا من الوصول إليك، ولن يجديك رجمنا للحيوان بقطع الحجارة التي لا يأبه بوقعها على جسده. عواء كلبتك أمامه لن ينفعك حين يمزق الخنزير أطرافك بأنيابه بعد أن ينطحك ويرقص فوق جسدك المهشّم رقصة الحيوان المنتصر أمامنا، وأمام لويزة المولولة الباكية، فواجه إذن.

ها هو يقفز نحوك، يحاول أن يجتاز هذه الشجيرة القصيرة التي تمنعه عنك.

في ارتماءة مفاجئة، كان الخنزير يقفز نحو علي بقوائمه الأماميّة وسط الشجيرة الشائكة ويصوّب أنيابه، ليُمنح علي قوّة جعلته يقفز عاليًا ويهوي بكل ثقله بضربة من هراوته على رأس الخنزير.

أربكت الضربة الحيوان. حاول جذب قوائمه من بين الأعواد الشائكة، وقبل أن يقوم بسلّها، اقتلع علي قوّة من عمق جذور خفيّة في أعماقه، وارتفع بأقصى طاقاته، ثم هوى قابضًا بكلتي يديه على هراوته، موجّهًا ضربات مسرعة متتابعة على رأس الحيوان.

تخبو نار الهائج ببطء، ينفخ هواء حارًا من أنفه، ممزوجًا بدخان ورذاذ، يدور حول نفسه في نزق واضطراب، لا يرغب بالاعتراف بهزيمته.

تلف يلفّه، يهمد، يحني رأسه، يولي راجعًا، يعود ببطء من حيث هاجم، ثم يسقط ناشرًا رجليه الأماميّتين، ليكتمل بعدها السقوط مع ارتطام رأسه بالأرض.

يقترب صراخ الحرّاس الرعاة الآتين على جيادهم. تسبقهم كلابهم مطاردة بقيّة الخنازير الهاربة، تدور في حلقة نباح متواصل، بين هجوم وهروب.

مبارزة الفتى والخنزير الجريح التي انتهت بانتصار علي، لم تكن لتمرّ دون أن يشعل أقرانه النار ويسقوه حليبًا طازجًا احتفاء بانتصاره، قبل أن يطلقوا عليه لقب السبع. كما أنّني صرت أعزّه أكثر، وأثمّن فيه تضحيته وبطولته.

لكن ملحمتك يا علي لم تكن لتؤثر في جوارحي، وتدفعني إلى أن أغرم بك كما أغرمت بجميل، وأوافق على طلبك الزواج بي.

ملحمتك لم تترك لديّ أكثر من إعجاب مؤقّت. صرت أحكي بطولتك على مسامع صديقاتي بدقّة تفاصيلها. أعدت سردها عشرات المرّات، حكيت بدقّة رسام ماهر يضع لمساته الأخيرة على لوحته. جعلت الصاغيات يتمعنّ في ألوان عينيك وهي تتغيّر وأنت تواجه الخنزير. تمنّيت أن أكون معشوقة بطل في مستواك، بمستوى نبلك وشجاعتك. ولكن لست أنت.

صرت أحلم بفارس يضاهيك في جسارتك، في قوّتك وفي حلمك. يخطفني ويرحل بي بعيدًا على البغلة الشهباء، التي كنت أخالها حصانًا أبيضَ فضِّيًّا.

لكنّني لم أحبّك. نفسي اللّعينة لا ترغب أن يكون الخاطف أنت. حاولت إقناعها، إرغامها، لم أفلح. قلبي تائه كمعربد سكّير يختار الطريق المعوج.

إلحاحك عليّ بأن أوافق على الزواج منك قضّ مضجعي،

أرّقني لأيّام. وضعتني أمام اختيار صعب. والاختيار تضحية؛ إمّا أرفض طلبك وأفقد إنسانًا طيّبًا ودودًا شهمًا يلفّني برقّته وحبّه، وإمّا أن أوافق فأجد نفسي قد تزوّجت من لم يخفق له قلبي العنيد ولم أغرم به.

أشقاني الاختيار، جفاني مرقدي. صداع حادّ صار يداهمني كلّما قرّرت الحسم.

مما رحمة قالت لي إنّك ترغب في الزواج منّي، وتتمنّى أن تراني زوجة لك، لكنّها استدركت تترك لي فرصة الاختيار. وحين أخبرت مما الزاهية، وأنا أزورها في السجن لم تعترض على رفضي.

عيناك يا علي منبعا حنان متدفّق. حاولت أن أستسلم لعمق نظراتهما وأدعهما تسافران في بواطني، فربما تستيقظ نحوك عاطفتي المنزوية في مكامنها، لكنّها لم تسعفني.

أتذكّر كيف كنت أهتزّ لمجرّد رؤيتي طيف جميل. أين أنا من تلك الأحاسيس، وأنا جنبًا إلى جنب قربك يا علي.

تذكّرت قول مما رحمة كيف أنّ الحبّ وسوسة وغواية شيطان، وأنّ المرأة الصالحة السعيدة هي من توجّه قارب حبّها وعواطفها نحو زوجها. تساءلت لماذا لا أستطيع أن أكون تلك المرأة. لأنّني غير سويّة أم لأنّني أحمل بذرة عهر دفين؟

كيف لي أن أرفض طلب علي، وأنا بالقرب منه ذقت طعم الطمأنينة والاهتمام والاحترام. أنا المشرّدة اللقيطة، كيف لي أن

أصدّه؟ وهو الذي تداهم جسده القوي ارتعاشة خفيفة ويخضّب وجهه احمرار كلّما التقى بي، انفعالات تشي بغرامه بي.

ماذا لو تحكّمت في خواطري التي تعاندني نزواتها، وجعلتها تدعني أقبل الزواج من علي، مستسلمة لحبّه. لكن، كيف لي أن أفعل؟

أعلنت مما رحمة خطوبة علي بحبيبة، بعدما برّرت رفضي برغبتي في إتمام دراستي. كنت أساعد مما رحمة في الاستعداد للحفل، فاترة الحماس مدارية ضيقي. غيرة غريبة تسري فيَّ سرعان ما أتناساها. علاقتي بحبيبة كانت تقتصر على تبادل التحيّات عن بعد. هي لم تكن تكبرني كثيرًا، انقطعت عن دراستها في سنّ مبكر، يغلب عليها طبع الجسارة وكثرة الكلام. اجتماعيّة، تتواصل بسرعة ملفتة مع مخاطبيها.

إعلان الخطوبة كان حفلاً بسيطًا، اقتصر على حضور العائلتين في منزل سي الأمين. لم تبد حبيبة أدنى حرج أو اضطراب أو قلق أمام جلال الموقف. كانت تتصرّف بتلقائيّتها المعهودة، كأنّها ليست المعنيّة بالخطوبة. أمّا سرطحا فهو حاضر كعادته.

ذباب يطنّ حول رؤوسنا، طنينه المنفر يزعجني، ولا يدعني أسترجع أنفاسي. القيظ على أشدّه، وأنا ومما رحمة وسعيدة صاعدات درج أزقّة ضيّقة غير مبلّطة، متوجّهات إلى بيت حبيبة.

بيتها يقارب قمّة الجبل المطلّ على المدينة، تحيط به أشجار صنوبر تنتظر دورها لتقتلع وتحلّ محلّها أشكال جديدة من بناء مشوّه. شبه بيت ملفوظ من مؤخّرة حيّ لا يحمل من الأحياء إلاّ اكتظاظ الدور. أبواب ضيّقة تحيلك على متاهة منفرة، كأنّها لعبة تمازج بين أشباه أبواب وأشكال نوافذ. أشباه أبواب تفتح وتغلق على أشباه نوافذ وسط أشباه دروب تتداخل وتلتوي في صعود لولبي بشع. لا تدري هل ولجت بابًا أم زقاقًا أم دربًا.

وأنا ألهث، رجلاي ما إن تطوّحا بي من درجة حتّى أجد نفسي أمام أخرى أكثر ارتفاعًا. تذكّرت شتم كارمن لمن رخّصوا لهذا النوع من البناء أن يتنامى.

طنين الذباب لا يخفت. تقسم الشمس ألاّ تزداد إلاّ توقّدًا. يصبح توهّجها سياطًا تختار بدقّة رأسي. تنزل أشعّتها الناريّة لتزيح شعري شعرة شعرة، ولتنفذ إلى داخل رأسي، فيصبح مرجلاً. ينبّهني صوت خافت لماء ينساب تحت رجلي نازلاً من فوق،

وتزداد استفاقتي برائحة لم تترك لي شدّة الشمس الساطعة فرصة لتحديدها من البداية. لم تكن إلاّ جداول لماء الصرف الصحّي نازلة ململمة شتات تجشؤات قاطني هذا الحيّ.

تنتهي خطواتي المتعبة بانحناءة أمام باب صغير، فأنحني متقوّسة لكي ألج إلى الداخل.

أثاث بسيط بالفناء الصغير، أخت حبيبة تستقبلنا، وهي تحمل آثار الشجن. الأب منزو، وقد طبعت ملامحه سمات حزن وفقر مريرين. الأم بلباس بدوي نظيف، ما إن شاهدتنا حتى شرعت تنتحب.

طنين الذباب لا يخفت. أيادينا صارت مراوح تحاول إبعاده. آنية مملوءة لبنًا على المائدة زادت من وتيرة رقص الذباب، وهو يحاول أن يغطس بداخلها.

حبيبة لم تكن موجودة، ذهبت وربما لن تعود. رحلت كما رحلت الكثيرات من حيّنا. تطاولت على والديها وعلى خطيبها علي. لست أدري كيف ملّت وكفرت فجأة بحياتها. دون إنذار، وبرعونة غير محسوبة، نثرت حبّات القلادة التي كانت تشدّها إلى عائلتها وخطيبها وراحت. لم تودّع ولم تستشر أحدًا. تركت عليًّا يكتوي، ليس بفقدها فقط، بل لأنّه لم يجد تفسيرًا لتصرّفها.

قيل لي يومًا إنّها كانت تكثر الوقوف بين الدروب مع عُمَارَ البَيرَاطَا، صعلوك من حيّنا فارع الطول واضح الملامح. ذيع صيته معربدًا يبيع كل ما يمكن أن يجلب له درهمًا. يقول عنه

سرطحا إنّه يبيع كل شيء ولو تبّان وسرير أمه. امتهن كل ما يمكن أن يجلب له مالاً وفيرًا، من حمّال لأكياس الحشيش بين الجبال إلى قاطع الطريق ليلاً، إلى نشّال خلال ازدحام الأسواق والأزقّة، إلى حام للعاهرات، إلى قوّاد.

بسرعة وحنكة وحبكة انتشال ضحاياه، نشر جناحيه على حبيبة. وبين الخوف منه والإعجاب شاركته الطريق، تاركة خلفها أبًا شيخًا وضيع الحال، وأمًّا مرهقة من عرض بقايا الخضر بزنقة الوطية، وخطيبها المكلوم وأنا المبهوتة ممّا وقع، لا أكاد أصدّق.

لم يكتف البيراطا بمرافقتها في النهار، بل هاجم بيتها في منتصف ليلة، متهيّجًا من سكره، وأخرجها عنوة بعدما كسر الباب أمام صراخ الأم، وبعد ضربة خرّ على إثرها الأب أرضًا عندما حاول التصدّي.

منذ ذلك اليوم لم تعد حبيبة. أخبار غريبة تصلنا عنها. شوهدت متأبّطة ذراع البيراطا. لباسها تغيّر وأصبح ملتصقا بجسدها في وضوح فاضح. ثم وصلنا خبر أكثر غرابة. كانت حبيبة تجالس البيراطا في حانة بمدينة الرنكون.

* * *

يتلقّى علي خبر حبيبة. شعور بالغبن يمزّقه. أن يتجرّأ وغد سافل على ضرب صهره العجوز ويخرج خطيبته من دار أبيها في منتصف الليل هو منتهى الإجرام والحطّ من كرامته.

إن لم يردّ على هذا فليدفن رأسه، ليس في الرمل كالنعامة، بل في أرض قريته الصلبة الجدباء، وليصبّ على رأسه الحنّاء، ويولول كنساء قريته الناحبات في المآتم. وليغادر الشهباء ولويزة، وليرحل بعيدًا عن قريته، وليتنازل عن لقب السبع.

يحمل جراحه ويرحل في اتجاه تطوان. مسافة الطريق تنحسر فيقترب الدم من خياشيمه كأنّه سيتناثر زخّات. خيول تفعص دمه. حلّ بحيّ الجبل، بحث عن غريمه، عزم أن يواجهه بشجاعة تفوق تلك التي واجه بها الخنزير الجريح. دُلّ عليه، انتظره في ممرّ درب ضيّق، خرج البيراطا مكسّر الأنف والذراع اليمنى.

يعود علي إلى قريته حاملاً مرارة عميقة. مقت يخنقه ويحسسه أنّ بابًا للضياع قد انفرج داخله وحفر لديه أخاديد جراح. يعتصره الشكّ والغيرة، فحبيبة لم يرغمها البيراطا على مرافقته، كما توهّم، هي التي رغبت في ذلك. تغور الأسئلة في أعماقه فتخلّف تيهًا ويبابًا.

لا أجتاث جذور الشجيرات اليابسة من الأرض لاستصلاحها، ولا حفر السواقي لسقي البقع الصغيرة من الأرض المستخرجة من انحدار سفوح الجبل، ولا رعي مواشيه ينسيه فجيعته. جفاه الإحساس بالراحة، لم يعد يسقط على فراشه حين عودته منهكًا من العمل، فينسلّ منه التعب ببطء ليترك النوم يغازل روحه ويحملها إلى الاطمئنان. أخبار جديدة تؤلمه تصل إليه عن حبيبة. فقد أصبحت ترافق البيراطا علانية، ولا تعود إلى المنزل، وتدخل الحانات.

نايه القصبي الذي اعتاد أن يبثّه لواعجه بنغمات رقيقة لم يعد له بلسمًا. غاصًا في حزنه الثاقب ينزل إلى مدينة الرنكون الساحليّة التي أضحت ملجأ حبيبة ومكان تيهها بين الحانات وفنادق اللهو. في ركن من حانة على الشاطئ تنزوي حبيبة وكأس خمر بين يديها، يحيط بها البيراطا وشخصان آخران ملامح أحدهما أجنبية. يصدم علي لما شاهد، يفقد كل قدرة على ضبط النفس.

يحين الليل. يتتبّع علي الجماعة وهي خارجة من الخمّارة. يخونه الانضباط فينقضّ على البيراطا، بين عويل واستغاثة خطيبته، وهي تحاول إبعاده، يعاجله مرافقها بضربة سكين في كتفه. لقد هزمت خنزيرًا هائجًا يا علي؟ فكيف تقهر على يدي سافل قوّاد؟

يردّ علي على خصمه بضربة رأس، يتمايل على إثرها الأخير، فيسقط أرضًا وحاجب عينه اليسرى مفلوح. ينقضّ علي على مرافق غريمه الذي صار مذعورًا، وقبل أن يتمكّن منه كانت يد الأجنبي تمتدّ إلى رشاشة صغيرة في جيبه ليطلق منها سائلاً حارقًا على عيني علي. فيحسّ هذا الأخير بحرقة حارّة في عينيه، بانعدام الرؤية، بإغماءةٍ خفيفة. حاول التشبّث بأيّ شيء قبل أن يشعر بفقدان توازنه. لسعة حارقة على خدّه الأيمن أيقظته من خدره، تتبعها لسعات أخرى خاطفة على وجهه، على صدره، أسفل بطنه، ثم يحسّ لسعة أخيرة على عينه اليسرى.

غدورك يا علي. شطبوا وجهك وأسفل بطنك بسكاكينهم، أهدروا صحّتك ووسامتك. أليست الخنازير البرِّيَّة أرحم من هؤلاء القذرة؟ على الأقلّ واجهتك بشجاعة ولم تغدر بك.

أعماك الوهم يا علي. وهم الغيرة والعرض وحمل القضيّة. لملم جراحك بيديك الآن، وانظر لوجهك بشجاعة لا تنتهي. لا تخجل، أنظر في المرآة وشاهد كيف أنّ ملامح صفائك لم تمح ولم تختف.

لم تتشوّه يا علي، كل المرايا كاذبة. مرآتك أنت الصادقة. مرآتك الوحيدة نفسك. لا تيأس، فخلف كل القضايا ضحايا. لا تحزن، لملم شظايا جراحك واصل رغم فظاعة آلامك.

تمهّل وتمعّن جيّدًا. أنت الآن تشتغل حارسًا للمنار. ها أنت تقف فوق كدية مرتيل، على قمّة تل مرتفع عن شاطئ كابونكرو. يحدوك على بعد خطوات منحدر عميق يغوص في مياه البحر. عمق أسود يتراءى لك. لون قاتم لعمق غامق بلا قرار.

أهدرت شبابك من أجل سراب تبخّر. أصبحت بعين واحدة ورجولة مخصيّة وعاهات مستديمة. تشوّهات تحملها ملامحك.

انطفاء وشرخ في دواخلك. خنتك أنا، لم أقدر على حبّك يومها، وخانتك خطيبتك، وغدرت بك الخنازير. همّك أتعبك.

تنظر الآن إلى قعر البحر فلا ترى شيئًا. تَمعن في قرار نفسك تجد نورًا ونبراسًا متّقدًا. عينك الوحيدة كفيلة بأن تريك سموّ نفسك. أصرخ لن يسعفك صمتك، زلزل أعماقك بصيحات تغسل درنك لتهبك شجاعة المواجهة والصبر الجميل.

لا تقلق. عينك التي أطفأ الخنازير شعاعها، وشاركت أنا وحبيبة في خسف وميضها، ها هي تمدّ نفسك وتذكيها بشعلة وضّاءة لسبر أغوار الحلكة الدامسة المنقبضة على روحك.

أن تهزم نفسك بنفسك منتهى السقوط والدناءة. فوهمك سينجلي ببطء، سيرفع غلالته عنك، ليظهر لك أنّك كنت عاشقًا لوهم سهل الاندحار.

أنت تعمل الآن حارسًا للمنار. تفرش سريرك قربه. وهو ينبّه السفن والمراكب الصغيرة كي لا تتيه ولا تصطدم بحوافّ الجبال. في الليل تنطلق أنواره، وفي الظلام الحالك يصبح شعاعه ضياء يهتدى به. هو الفنار عينك التي فقدت. فدع وهجك يساير ويتخطّى نور الفنار، يتدفّق مرفرفًا على روحك، وعلى كل من تتبّع حكايتك. ارفع رأسك عاليًا إلى السماء، وجلّ بتلك العين الوحيدة الباقية حول ما هو مترام أمامك، لتتفتّح لك البصيرة فتعانق وجدانك في روق، ولينقشع لي ولك الطريق في ليالي حيّنا البهيمة.

«... داركم دار بغايا،» هذا ما قالته لي سعيدة ونحن متوجّهتان إلى المدرسة. بدهشة نظرتُ إليها، لم أدركْ معنى كلامها. ذكرتْ أنّ أمها حدّثتْها عن أشياء قبيحة تجري في دارنا، وأنّ أمي مما زاهية ليست بأمي، وهي امرأة غير شريفة، قبل أن تخبرني أنّ أمّها منعتها من اللعب معي.

بكيت كثيرًا. هل لأنّني لن ألعب معها بعد اليوم؟ أمْ بسببِ ما سمعتُه عن أمّي وعن دارنا؟ لم تتوقف دموعي. في المدرسة نهرتني المعلّمة، فازددتُ بكاء. قرّبتني إليها واحتضنتني. وددتُ لو أردِّد عليها ما حكته سعيدة، وأن تبقيني قريبة منها.

تتناول هذه الرواية حكايات تفصح عن شريحة واسعة من الناس تنتمي إلى ما هو تحت القاع الاجتماعي. إنّها حكايات تتعدّى السيرة الذاتية لمأساةِ فتاة، لتحكي تاريخًا اجتماعيًّا للمدينة والأنوثة.

البشير الدامون روائي مغربي، خرّيج كليات الحقوق والآداب وأصول الدين. **سرير الأسرار** هي روايته الأولى.

دار الآداب
هاتف ٨٠٣٧٧٨ - ٨٦١٦٣٣
ص ب ١١-٤١٢٣ بيروت

ISBN: 978-9953-89-018-0
9 789953 890180

تصميم الغلاف: ريم الجندي